في رواية أُخرى

ISBN : 978-9947-21-608-8
Dépôt légal : 4402 - 2013

محمد علاوة حاجي

في رواية أُخرى

رواية

منشورات ANEP

الفصل صفر

وأنا نصف مُمدّد في كرسيٍّ على سطح هذه العمارة الآيلة للسقوط، واضعًا رجْلاً على رجْلٍ، أرتشف قهوتي وألتهم ما تبقّى من سيجارتي،

أتصوّر كيف وصل هذا الشيء إليك.

بل أتصوّر أكثر من احتمال لذلك.

الاحتمال الأول

كنتَ مارًّا بشارع س في ظهيرة يوم قائظ، وكنت تحمل بقايا سيجارة في يدك وورقة نقدية رخيصة في جيبك. ورقة واحدة لا أكثر ولا أقل. هذا ما تحمله عادة وأنت تخرج من البيت.

في مثل هذا الوقت من كلّ يوم، يكون ما تبقّى من ورقتك هو النصف. أما اليوم، فالمبلغ مازال على حاله، والسبب أن سائق التاكسي العجوز الذي أوصلك هذا الصباح من حي س، لم يتمكّن من قبض أجرته، إذ لم يكن يحمل فكّة معه. طلب منك، على مضض، أن تدفعها في المرّة القادمة. نزلت وأنت تتساءل: «هل ستكون ثمّة مرّة قادمة؟».

على الأرجح أنّكما لن تلتقيا مجدّدًا، فنادرًا ما ركبت مرّتين مع السائق ذاته، حتى في خط س- س.

اتّجهت رأسًا إلى مقهى س؛ حيث اعتدت تناول فطورك، وأنت ناوٍ ألاّ يتجاوز المبلغ الذي ستتركه هناك نصف ما لديك. فوجئت بموحوش، صديقِك الذي لم تلتقِ به منذ أيام الخدمة العسكرية، قابعًا في زاوية، يحتسي قهوة ويدخّن.

حقيقة أولى

سعادتك وأنت ترى، مجدّدًا، هذا الصديق القديم الذي بدا عليه الشعور ذاته، فقد ضمّك إلى صدره بقوة، معبّرًا عن اشتياقه.

حقيقة ثانية

شعورك بالحزن، حين تأكّدت من أنك لن تخرج من المقهى إلا وقد تركت فيه كل ما في جيبك. ستضطرّ لقرض مبلغ مماثل من الآنسة س، زميلتك في العمل، التي سيكون عليك تسديد كلّ ديونها قبل نهاية الشهر، إذ باتت، منذ ثلاثة أشهر، تدوّن كلّ سنتيم تستدينه منها في كرّاستها المخصّصة لتسجيل الأرقام الهاتفية.

لعلّك لا تعلم أن ديونك من الآنسة س تساوي مرتّب شهرين كاملين، فأنت تأخذ المال عادة دون أن تعدّه، وهذا ما سيجعلك تُصدم عندما تواجَه بالحقيقة، وإلاّ لحاولت سرقة الكرّاسة اللعينة التي تخفيها بحرص في مكان ما، أو على الأقلّ لتفاوضت معها على إعادة جدولة الديون، لتدفعها كما أخذْتها، بالتقسيط، لا دفعة واحدة.

لاحظ أنّني أتحدّث عن س فقط، أما البقيّة فلن آتي على ذكرهم، خشية أن يُغمى عليك.

في نهاية جلستكما التي طالت بعض الشيء، تظاهرت بأنك تهمُّ بدفع ثمن ما تناولتماه. لم يكن الأمر غير تمثيلية سخيفة، لأن السعر يتجاوز بكثير قيمة الورقة التعيسة الممزّقة طولاً وعرضًا، التي تختبئ في جيبك. في تلك اللحظات التي كنت تقلّب فيها جيوب سترتك وسروالك، كان موحوش قد دفع الحساب.

وبحركة مسرحية مفضوحة، تظاهرت بعدم رضاك عن الأمر، وادّعيت أنه كان عليه أن يتركك تدفع. لا بأس، في المرّة القادمة. قالها مبتسمًا.

حتما ستكون ثمة مرّة ثانية وثالثة و..

لم يكن عليك أن تتمتّع بدقّة الملاحظة لتعرف أن في جيب موحوش المنتفخ أضعاف ما في جيبك. أخرج حزمة سمينة من أوراق الألفي دينار التي استُحدثت مؤخّرًا، بعد أن تدحرجت قيمة العملة الوطنية إلى الحضيض، فالأوراق النقدية مرتفعة القيمة كانت تُستحدث كلّما انخفض سعر العملة الوطنية، وهكذا أصبح ثمّة ورقة تعادل عشرة أضعاف التي في جيبك. كنت تتساءل كم حزمة مثل التي عند موحوش تلزمك لتسدّد ديونك، حين مدَّ يده ليصافحك. فكّرت في أن تُبين عن وقاحة قلَّ لها مثيل، وتطلب منه أن يقرضك بعض المال، لكنّه في لحظة تردّدك، سحب يدك منك وصافحك وغادر. فعل كل ذلك، بينما كنت تحدّق في جيبه المنتفخ، مثل معتوه.

لم يفت الأوان بعد!

بإمكانك أن تركض وتلحق به.

أخذت تركض.

ركضت بأقصى سرعتك، بيد أن الأمواج البشرية المتدفّقة في الشارع كانت قد ابتلعته، أو لعلّه انعطف يمينًا أو شمالاً. واصلت الركض. احتمال العثور عليه مازال قائمًا، ما لم تنشق الأرض وتبتلعه. أخيرًا تراءى لك من بعيد. ضاعفت سرعتك، لدرجة أنك اصطدمت به بعد أقلَّ من ثانيتين فأوقعته أرضًا. وكان يكفي أن يلتفت إليك وهو يطلق وابلاً من الشتائم، لتكتشف أنك صدمت شخصًا آخر.

هكذا اختفى موحوش، دون أن تأخذ بعض الورقات من حزمته العملاقة. لم تحزن، على الأقل، كُتب لورقتك عمر جديد، وظلّت في جيبك فترة إضافية. تمنّيت لو تطول أكثر، لكن لسوء حظّك، وجدتَك في تمام منتصف النهار أمام محلّ التحف القديمة هذا.

أتساءل كيف قادتك قدماك إليه؟

لعلّك كنت تتبع الظلّ مثل شاة تسير ملتصقة بالجدار في أيّام الحرّ. الحقيقة أنّني لا أجد تفسيرًا آخر. دخلتَ بشكل لا شعوري، حيث المكيِّف الذي دلّك عليه إحساسك بالحرارة والرطوبة والقرف.

بما أنك دخلت، فقد اضطررت، هذه المرّة، للتظاهر بتصفّح بعض الكتب القديمة التي يعجُّ بها المكان، على

الجدران والأرضية وفوق المكتب. ولسبب ما، وجدتَك تحمل هذا الشيء، وتمدُّ يدك إلى جيبك، تُخرج الورقة وتسلّمها للبائع العجوز الذي ستلاحظ أنه يشبه، إلى حدّ كبير، سائق التاكسي الذي ركبت معه صباحًا.

فكرة منطقية

بائع الكتب القديمة هو نفسه سائق التاكسي المهترئ. يعمل في الصباح سائقًا، وفي المساء بائعًا. الأمر بسيط ومنطقيّ جدًّا. هل تراه أنت غريبًا أو خرافيًّا؟

أُنظر إليه وهو يحاول قمع ابتسامته. انتصر عليك في النهاية. لم ينتظر كثيرًا ليأخذها كاملة، ونظير شيء قديم وتافه.

أعرف أن ذلك كلّفك الاستغناء عن وجبة الغداء.

أعرف أيضًا أنك، وبعد أن عدت إلى العمل في الفترة المسائية، صُعقت حين تذكّرت، متأخّرًا، أن س لا تعمل مساء مثل هذا اليوم، وهو ما جعلك مضطرًّا لأن تلجأ إلى زميلك س وتطلب منه ما كنت ستطلبه منها، وأنت متأكّد أنه سيردّك خائبًا، كالعادة. أعرف أنه ردّك خائبًا، كالعادة.

أعرف أنك عدت إلى البيت راجلاً، وأنت تتلهّى بهذا الشيء في طريقك.

أعرف كلّ هذا. أمّا ما لا أعرفه، فهو كيف فرّطت في ثروتك مقابل هذا الشيء القديم والتافه؟

إن ذلك سيظلّ، بالنسبة لي، بمثابة لغز.

الاحتمال الثاني

كنت تتسكّع في شارع س، وأنت تحمل بقايا سيجارة في يدك وورقة نقدية رخيصة في جيبك. تسكّعت طويلاً رغم الحرارة والرطوبة، فأنت لا تختلف عن معظم المواطنين الذين يشعرون بأن شيئًا ينقصهم إذا لم يقوموا بهذا الطقس اليومي: الطواف عند الشارع س مرّة واحدة في اليوم على الأقلّ. وهذا التفكير المشترك، أو لنقل الاتفاق الجماعي غير المعلن، هو ما يجعله مكتظًّا طيلة النهار.

دعنا نتّفق على أن طوافك اليوم، وعلى غير العادة، لم يكن اعتباطيًّا، إذ كنت تذرع الشارع ذهابًا وإيابًا، من أعلاه إلى أسفله، ثم من أسفله إلى أعلاه، وتقف عند واجهة كلّ محلّ، بحثًا عن هديّة مناسِبة، بمناسَبة عيد ميلاد سمّونة، خطيبتك التي أضافت اليوم إلى عمرها سنة كاملة. فكّرت في العطر، لكنّك تذكّرت أنك أهديتها شيئًا مُشابهًا قبل أيام. فكّرت في أن تشتري لها ساعة يدوية صينية، تشبه إلى حد كبير الساعة الأصلية الفاخرة، لكنّك خشيت من تداعيات ذلك. ولأنّك وقفت عند كل المحلاّت تقريبًا، بما فيها محلاّت الوجبات السريعة، فقد وقفت أيضًا أمام هذه المكتبة. وهنا خطرت ببالك فكرة مدهشة: أن تهديها هذا الشيء.

هناك سببان وجيهان يجعلانه الاختيار المثالي: أوّلهما أنه لن يكلّفك الكثير، خاصّة أنّك لم تقبض مرتّبك الشهري منذ ثلاثة أشهر، وثانيهما، وهو الأهم، أنه سيكون وسيلة جيِّدة لمغازلة مبروكة، أمّها التي تعمل أستاذة في الجامعة. لطالما لم تهضم فكرة ارتباط ابنتها بشخص غير متعلّم ولا

علاقة له بالثقافة والأدب، فأنت، حسب معلوماتي، لم تكمل دراستك الثانوية. من المؤكّد إذن، أن هذه الحركة الذكيّة ستحمل الدكتورة مبروكة على مراجعة أفكارها عنك. إنها الترجمة الفعلية للمثل القائل: عصفوران بحجر واحد.

عند تمام الخامسة، كنت في كافتيريا س، حيث اعتدت لقاء سمّونة. كنت تحمل هذا الشيء وتتلهّى بتقليب صفحاته لتمضية الوقت. لعلّك كنت تنظر إلى المرأة الشاردة ذات الشعر الأحمر القاني التي على الغلاف، وخيط القهوة المتدفّقة من الفنجان، إذ أكاد أجزم أنك لم تقرأ حرفًا واحدًا منه.

بعد ربع ساعة أقبل العطر الفاخر الذي تكبّدت ثمنه، دونما مناسبة، ثم تبعته سمّونة، وتبعتها الأنظار التي استودعتها كرسيًّا قبالتك. جميلة كعادتها، لكنّها بدت معكّرة المزاج. سارعت إلى إخفاء هذا الشيء، وبادرتها ببعض التغزّل، قلت لها إنّها تبدو أصغر بكثير من عمرها، وسألتها مبتسمًا إن كانت تنقص بسنة كل سنة. اكتفت بالابتسام. طلبتما فنجانَي قهوة. تحدّثتما في مواضيعَ كثيرةٍ لربع ساعة أخرى، ثم أخرجْته من تحت الطاولة.

لا أعرف لِمَ أخذ كلٌّ من الكافتيريا ينظرون إليك بدهشة؟

ربّما لأنه كبير نوعًا ما، ربّما. لم تكترث بهم، وأخبرت سمّونة أنه سيكون هدية عيد ميلادها. أتحدّث عن هذا الشيء.

من الواضح أن المفاجأة أذهلتها، فقد استرسلت في قهقهة طويلة استغرقت منها ربع ساعة إضافية.

س: أعجبتها الهدية؟

ج: لا.

سألَتك إن كنت تمزح، وأعلمتك أنّها ترفض الهدية جملة وتفصيلاً، لعدّة أسباب، منها أنها عارية، فجّة، دون ذوق أو حسٍّ فني، دون غلاف يُضفي عليها ميزة ما. سبب آخر، هو أن الهدية جاءت تحت سقف كل توقّعاتها، فكتاب لا يتعدّى ثمنه قيمة ورقتك المشؤومة لا يصلح حتما لأن يكون هدية لشخص عزيز في مناسبة عزيزة. أكثر من ذلك، يمكن اعتبار الأمر استخفافًا بمشاعرها وعدم تقدير لها. تحجّجت بأن الهدية لا تُقاس بقيمتها المادية، فلم يزدها ذلك إلا إصرارًا على الرفض. أضفت أن هذا الشيء تحديدًا سيُعجب أمّها، وقد يحملها على تغيير أفكارها عنك، فنهضت غاضبة، دون أن تأخذ رشفة واحدة من القهوة التي وصلت للتوّ. قبل أن تغادر، نبّهتك إلى أمر مهمّ: «بإمكانك أن تهديه لأمّي، فعيد ميلادها، هي الأخرى، سيكون بعد أقلّ من شهر».

حملتَ هذا الشيء ومضيت إلى حال سبيلك.

لا أعرف إن أهديت سمّونة شيئا آخر.

لا أعرف حتّى إن عادت علاقتكما إلى سابق عهدها، أم أنّها انتهت في تلك الجلسة.

لا أعرف ما الذي تعتزم فعله الآن.

بما أن هذا الشيء نذير شؤم عليك، فلِمَ لا ترميه من النافذة؟

مجرّد اقتراح

لا أريد أن أتدخّل في حياتك الشخصية، لكن لِمَ لا تفكّر في تغليفه وإهدائه للسيدة مبروكة؟

بعد خمسة أيّام، خمسة أيّام فقط، ستُضيف إلى عمرها سنة كاملة.

الاحتمال الثالث

أحيانًا، تقودك قدماك إلى أماكنَ ليس فيها سقف لاحتمالات الأنواع البشرية التي يمكن أن تلتقيها هناك. هذا ما حدث معك، وأنت تجدك بعد منتصف ليل ما، في حانة ما، تقع على الأرجح في إحدى الأزقّة الضيّقة المتفرّعة عن الشارع س.

لا أريد أن أفكّر كثيرًا في السبب أو الأسباب التي قادتك إلى هناك. أفضّل أن أعتبرك مجرّد زبون موسمي، من النوع الذي لا يأتي إلى هذه الأمكنة إلا مرّة واحدة في الشهر، في نهايته تحديدًا، عندما يقبض على مرتّبه. أفعل ذلك وأنا أعرف أن الأمر عكسي في حالتك. فأنت لم تقبض مرتّبك منذ ثلاثة أشهر، وهذا سبب كافٍ لمجيئك. هنا، بإمكانك أن تنسى، ولو لساعات قليلة كابوسك الرئيسي، والكوابيس الثانوية التي تتفرّع عنه.

التفِت حولك. أُنظر إلى المخلوقات التي يعجُّ بها هذا الحيِّز الضيِّق النتن.. الكهل ذو الكرش الناتئة الذي يتصدّر المجلس كملك يحيط به وزراؤه الثملون وحاشيته المكوّنة من كوكتال من المحبطين وغريبي الأطوار، المخنّث صاحب

السروال الزهري والقميص المبهرج الذي لا يتوقّف عن التمايل، وهو يذهب إلى البار بزجاجة فارغة، ليعود بأخرى ممتلئة، النادلة المسترجلة التي تقبض شفتاها على لفافة تكاد تحرق شفتيها، وهذا المعتوه ذو النظّارات السميكة الجالس أمامك، الذي لا يكف عن الشرب والتجشّؤ.

ابتعِدْ قليلا. يكاد يلتصق بك.

رحت تشرب بشراهة. أخذ المكان يدور حولك، ومعه كلّ غريبي الأطوار. شعرت لحظتها أنك مركز الكون، أو لنقل مركز الحانة، حتى لا نبالغ. رحت، ودون سبب واضح، توزّع الابتسامات على الجميع وتقبض بدلاً عنها ابتسامات من الجميع. ها هو الحيِّز الضيِّق النتن يتحوّل إلى فردوس صغير. المخلوقات الغريبة تستحيل كائنات وديعة وجميلة. المعتوه ذو النظّارات السميكة الذي لا يكفُّ عن الشرب والتجشّؤ يصبح موحوش.. نعم موحوش، أخوك الذي هرب من البيت منذ سنوات، حين كنتما طفلين. اعتقدتَ أنه لحق بأبيك، لكن أباك عاد وهو لم يعد.

لعلّك تهذي.

أكثرتَ من الشرب. أليس كذلك؟

إنه يبتسم لك كغيره. ها هو ينهض بصعوبة، ويقف مترنّحًا. يلوّح بكأسه وهو يتمايل يمينًا وشمالاً. يرغو ويزبد. يطلق وابلاً من العبارات النابية، مشيرًا بأصبعه نحوكم. يهمُّ الحارس الضخم بردعه وإلقائه خارجًا، لكن صاحب الحانة، الكهل ذا الكرش الناتئة، يأمره بأن يدعه وشأنه. يغترُّ فترتفع

عقيرته بالصراخ أكثر. يُخرِج من محفظته مجموعة كتب. يصرخ: «هذه كتبتها في المرحاض، لكنها أهمّ منكم جميعًا يا عديمي الكرامة». يصفكم، أنتم الجالسين في الحانة، كلّكم وبلا استثناء، بالجهلة والتافهين، وبأنكم مجرّد بهائمَ قذرةٍ وحشراتٍ حقيرة. يهدِّد بفتح سحّاب سرواله ليتبوّل عليكم واحدًا واحدًا، ثم يتراجع. يقول إنّكم ستقدّرون قيمته وقيمة كتبه يومًا. يصفّق الملك فتفعل حاشيته مثله. لا ينتشي موحوش بالمشهد طويلاً، إذ يهوي على الطاولة، ومعه كتبه التي تتساقط بين يديك.

ومجدّدًا، تقابلك المرأة الشاردة ذات الشعر الأحمر القاني وخيط القهوة المتدفّقة من فنجانها. تدقّق في صورته واسمه الذين على ظهر الغلاف. الآن، لم يعد يخامرك أدنى شكّ في أنه هو. تمدُّ ذراعيك إليه، تنتشله من الطاولة، تحاول حمله، لكنّك كمن يحاول حمل برميل كبير ممتلئ بالبيرة. تكتفي بجرّه إلى الخارج، وهو يسحب محفظته التي أعدت حشوها بكتبه.

يتمتم: «خلّيني نبول على أولاد القحبة».

ترتميان في مساحة مقفرة، مفترشَين الأرض. تسأله عن أحواله وأخباره، عن المكان الذي اختفى فيه طيلة سنوات غيابه. تبشّره بخبر موت جدّكما، فلا يبدي أدنى شعور بالسعادة. يقلّب محفظته المنتفخة ويُخرج كتابًا، ويستغرق في قراءة مقاطعَ منه. يتوقّف فجأة، ويسألك عن رأيك في ما سمعت. من الواضح أنّك لم تسمع شيئًا.

تصدمه: «لا تهمني هذه الخزعبلات. المهمّ أنّنا التقينا مجدّدًا يا أخي».

ينتفض مذعورًا، كما لو أنه يسمعها منك للمرّة الأولى:

ـ أخوك؟

– نعم. أنت.. أنت موحوش، أخي. وأنا س.. أخوك. هل نسيتني؟ أنظر إليَّ جيّدًا. مرَّ زمن طويل!

– ليس لي أخ.

– لكنك موحوش. أليس كذلك؟

– بلى. لكني لا أعرف.

– أنظر إليّ جيّدًا. حاول أن تتذكّرني.. هربتَ من البيت عندما كنت في عامك الـ..

– أوكي، سأحاول أن أتذكّر.. حسنا، لقد فعلت. ليس لي أخ، ولا أذكر أنّه كان لي بيت أو كوخ لأهرب منه. من الواضح أنّك أسرفت في الشرب. دعني أمضي إلى حال سبيلي.

ينهض بصعوبة ويهمُّ بالمغادرة. يقطع شوطًا في اتّجاه ما، ثمّ يعود ويقذفك بشيء على رأسك.

– اقرأه واعطني رأيك. رقمي وبريدي الإلكتروني مدوّنان على صفحته الأخيرة.

يهمُّ بالمغادرة مجدّدًا، لكن قدميه تخونانه، فيخرُّ مرّة ثانية.

في الصباح، وجدتَك بين أقدام مارّة اكتظّت بهم محطّة المسافرين. منظرك يثير الشفقة، كمنظر المعتوه ذي النظّارات،

الذي التقيت به البارحة.

إنه نائم بجانبك بالمناسبة. لم تستطع استيعاب كيف وصلت إلى هذا المكان، وما الذي يفعله معك. وبينما كنت تفكّر في الأمر، قفز من نومه كمن رأى كابوسًا وعانقك بحرارة: «أخي.. لا أصدّق أنّنا التقينا مجدّدًا!».

سألتَه إن كان يهذي. أكّدت له أنّك لا تعرفه.

ـ أُنظر إليَّ جيّدًا. أنا موحوش.

ـ تشرّفنا.

يُلحّ. يُقسم أنه أخوك الذي هرب من البيت. يحدّثك عن أخباره ومغامراته، وعن الأماكن التي زارها والخطايا التي ارتكبها طيلة فترة اختفائه. يُعرب لك عن استعداده للعودة معك، دون قيد أو شرط، إلى البيت العائلي، بعد أن مات جدّكما. وعندما يصمت، تؤكّد له أن أخاك لم يهرب، فلا أخ لك أصلاً، حتّى يهرب من البيت أو يبقى فيه.

تطوّر الموقف أكثر. التصق بك كفُمّلة وراح يبكي: «أنا أخوك الذي هرب من البيت عندما كان في عامه الـ.. ».

ـ من الواضح أنّك مازلت تحت تأثير المشروب.

اقتراح جيّد

ليس أمامك إلاّ أن تهرب.

تنصّلت منه، وأخذت تركض بأقصى سرعتك، وهو يركض خلفك. وحين يئس منك، اكتفى بإرسال ذبذبات

صوتية تطلب منك أن تعطيه رأيك في ما ستقرأ. حينها شعرت أنك تحمل شيئًا. كان الكتاب بين يديك.

أنت الآن في شقّتك، مستلقٍ على الكنبة أمام ضوء خافت. رغم أنك تشكّ في أن يفعل ذلك المعتوه شيئًا جيّدًا، وفّرت جوًّا جميلاً لتستمتع بقراءة كتابه. لكنّك تذكّرت أمرًا هامًّا: أنت لا تحسن القراءة.

اتّصِل بجارك في الطابق الخامس، واطلب منه أن يقرأ لك بعضًا من صفحات الكتاب، حتى تكوّن فكرة عنه.

تفعل، فتجده مشغولاً.

تطلب من بقية الجيران ذلك، لكن كل واحد منهم يتحجّج بعذر، حتى ترتاب في الأمر. هل يُعقل أن كل من في العمارة أميّون مثلك؟

ها أنت تذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وهذا الشيء في يدك، دون أن تعرف ماذا ستفعل به. أنصحك بأن تحمل، الآن وعلى الفور، هاتفك الذي تضعه هناك، على جهتك اليسرى، وتتّصل بموحوش الذي زعم أنه أخوك، وتخبره بالحقيقة كاملة، أنّك لا تحسن القراءة، وأنّك تنتظر متطوّعا يقرأ لك كتابه، أو تقول له إنك قرأته. بإمكانك في هذه الحالة أن تدّعي أنه مذهل ورائع، لدرجة أن لسانك يعجز عن التعبير عن مكامن القوّة والإدهاش فيه. كما بإمكانك أن تقول إنه تافه وسيّء جدًّا، للحدّ الذي أفقدك أيّة رغبة في الحديث عنه. لاحظ أنّني أتحدّث كما لو أن إبداء رأيك أمر إجباري.

احتمال فرعي

أنت تحسن القراءة. في هذه الحالة، يُفترض أنّك قرأت كل ما هو مكتوب إلى حد الآن. بإمكانك إذن، أن تتّصل بالكاتب وتُسمِعه مقدار صفحتين من الشتائم، أو تبعث إليه رسالة شنيعة عبر بريده الإلكتروني المدوّن على الصفحة الأخيرة.

بإمكانك أيضا ألاّ تفعل شيئًا، وتكتفي بقلب الصفحة، لتقرأ تتمّة هذا الفصل البائس.

تتمّة الفصل صفر

يمكنني أن أضبط برنامج اليوم بدقّة، باعتبار أنّني أعرف، تقريبًا، ما سيحدث خلال الساعات الأربع والعشرين القادمة.

في تمام الثامنة

أكون في الشارع س. أدخل إلى المقهى؛ حيث اعتدت تناول الفطور. هناك، ألتقي موحوش بالصدفة. يدفع ثمن ما نتناوله. وعندما نخرج، أقوم بمطاردته لسبب ما. يفلت اللعين مني، فأصدم شخصًا مجهولاً، ثم أختفي بين الأمواج البشرية التي تغرق الشارع. ينتهي المشهد هكذا: شخص هارب تلاحقه شتائم س مسكين ملقى على قارعة الطريق.

في منتصف النهار

أسير ملتصقًا بجدار، كشاة في أيام الحرّ. غارقًا في بركة من اللزوجة. يدفعني القرف إلى محلّ للتحف القديمة، حيث المكيّف ومقران. هو نفسه سائق التاكسي الذي أوصلني إلى شارع س. يبيعني شيئًا قديمًا وتافهًا وينتهي المشهد هكذا: رجل يعود إلى البيت، ماشيًا، وهو يتلهى بشيء ما.

في تمام الرابعة بعد الظهر

ألتقي سمّونة في الكافيتيريا س، حيث اعتدنا الالتقاء. أقدّم لها هدية بمناسبة عيد ميلادها. تثور ثائرتها وتنسحب، دون أن تشرب القهوة التي وصلت للتوّ. ينتهي المشهد هكذا: رجل وحيد في الكافتيريا، يشرب فنجانَ قهوة.

عند الثامنة والربع مساءً

أدلف إلى البار، وهناك ألتقي موحوش مجدّدًا، صدفة مرّة أخرى. أشرب كما لم أفعل من قبل.

كيف سينتهي المشهد؟

لا أريد تذكّر ما سيحدث بعدها.

هذا اللعين يطاردني بصيغ مختلفة.

إن نزعت ملابسي التي ارتديتها للتوّ، ورميت حذائي جانبًا، ثم أغلقت النافذة وأطفأت المصابيح وعدت إلى الفراش، فلن يحدث شيء من ذلك. لن ألتقي موحوش وسمّونة.. ولا مقران الذي أركب في سيّارته المهترئة صباحًا، ويبيع لي شيئًا عديم الفائدة بعد الظهر. لم أعد أتحمّل التقاء الوجوه والأسماء نفسها بأدوار مختلفة.

موحوش تحديدًا بات مملاً، لفرط تكراره. لم أعد أشكّ في أنه مخبر يتتبّع خطواتي ويكتب تقارير عني لصالح جهة غامضة. الأمر واضح جدًّا، ففي أيام الإكمالية اندسّ في القسم، متقمّصًا دور تلميذ متفوّق في مادة اللغة العربية، فلجأت إليه لتصحيح قصيدتي التي تغزلت فيها بسمّونة. وماذا فعل القرد؟

سلّمها دون مقاومة تُذكر لمقران الذي طلبها منه. أمّا في الاجتماع الأخير لإطارات الشركة مع نظرائنا في شركة أجنبية، كنّا فيه على وشك توقيع اتّفاقية شراكة، فوجدته جالسًا بيننا. قدّم نفسه على أنه مسؤول ملفّات الشراكة والتعاون في الشركة. لم يسبق أن رأيته هناك من قبل. سألت الموظّفين عمّا إذا كان ذلك صحيحًا، فأثرت سخريتهم. أخبروني بأنه يعمل معنا منذ ست سنوات، وبأن مكتبه يقابل مكتبي.

يعمل معنا منذ ستّ سنوات ومكتبه يقابل مكتبي، لكن لم يسبق لي أن رأيته هناك. لا يهمّ. المهمّ أنّه، وبطريقة ما، أجهض عقد الشراكة الذي كنّا نهم بتوقيعه، ولم أره بعدها.

سيكون لقاؤنا اليوم على الثامنة والربع في المقهى، الأوّل بعد تلك الحادثة. سأعبّر له عن اشتياقي. وبالطبع لن يكون بمقدوري أن أفاتحه في الموضوع، إذ سألتقي به هذه المرّة في صيغة صديق قديم من أيّام الخدمة العسكرية.

لم تكن تلك المرّة هي الأخيرة تمامًا، فقد التقيت به مرّة أو اثنتين بشكل افتراضي. اكتشفت أنه يتابعني باهتمام على «فيسبوك»، ووجدته مطّلعًا على كل ما فعلته، تقريبًا، طيلة الأشهر الماضية، بأدقّ التفاصيل.. الأماكن التي ارتدتها، الأشخاص الذين التقيتهم، الوجبات التي أكلتها، الكوابيس التي رأيتها.. وأشياء كثيرة أخرى.

إنها غلطتي بالتأكيد، فأنا أنشر على حائطي كلّ ما أفعله، وكلّ ما لا أفعله. لكن ما لم أفهمه هو كيف تسلّل إلى قائمة أصدقائي. لا أذكر أنّني وجّهت له دعوة يومًا، أو قبلت دعوة منه.

احتمال

وجّه لي دعوة باسم وصورة أخريين، وبعد أن استقرّ به الأمر وسط قائمة الأصدقاء، عاد ليضع اسمه وصورته الحقيقيين.

احتمال آخر

انتهز فرصة غيابي عن المكتب، فتسلّل إليه وأضاف نفسه.

مكتبه يقابل مكتبي تمامًا. وبما أن العبقري الذي صمّم المبنى ترك المكاتب هكذا دون أبواب، فقد كان موحوش يراقب حركاتي وسكناتي، حتّى دون أن يضطر لبذل أدنى جهد. ولأنّني عادة ما أخرج دون إغلاق حسابي، فقد كان بمقدوره أن يضيف نفسه دون عناء.

احتمال آخر

اخترق حسابي. من المؤكّد أنه لم يكتف بإضافة نفسه. لا أحد يخترق حسابًا ويكتفي بإضافة نفسه. طبعًا، بعث لي برسالة أخبرني فيها أنه اطّلع على كل مراسلاتي الشخصية، وأنه يحتفظ بنسخ من الرسائل التي بعثتها إلى سمّونة، وهدّدني بنشرها.

تلك الرسائل كفيلة بتدميري.

في رواية

اتّصل بي عبر رقم مخفي. لكنّني عرفته من نبرة صوته. لا داعي للإنكار. أعرفك كما أعرف ذكَري. ماذا تريد؟

ـ أمامك خياران: أن توقّع على اعتراف بأنّني من ألّف القصيدة، أو أنشر الرسائل. إنها كفيلة بتدميرك.

ابن القحبة يهدّدني!

التقيت به في البار الذي سنلتقي فيه مجدّدًا بالصدفة هذا المساء، ووقّعت له على وثيقة الاعتراف، بعد أن دفعت ثمن كل ما شربه. عندما يدخل موحوش إلى البار، يتحوّل إلى بالوعة ويسكي.

وفي رواية أخرى

اتّصل بي عبر رقم مجهول. لكنّني عرفته من نبرة صوته. لا داعي للإنكار. أعرفك كما أعرف ذكَري. ماذا تريد؟

ـ أمامك خياران: أن توقّع على اعتراف بأنّني من ألّف القصيدة، أو أنشر الرسائل. إنها كفيلة بتدميرك.

ابن القحبة يهدّدني!

ـ لن تحصل على شيء، وافعل ما بدا لك.

سرّب مقاطع من عشر رسائل.

الرسالة الأولى

أحبّكِ.. أحبّك بجنون وطيش. في السنة الثالثة في الإكمالية، ضبط مقران، أستاذ العلوم الشرعية، قصيدة حب كتبتها لك لدى أحدهم، إن لم تخنّي الذاكرة فهو موحوش، نعم إنه موحوش. أكاد أجزم بذلك لأمرين: أوّلهما أنه كان أكثرنا في القسم تفوّقا في مادة اللغة العربية، وهو سبب

وجيه لأعطيه القصيدة، كي يضفي عليها لمسته الخاصة، ويضبط لغتها ووزنها، وثانيهما، أن أحدًا غيره كان سيقاوم ويرفض تسليم الورقة بتلك السهولة. ولحقدي عليه، تنصّلت من مسؤوليتي. قلت للأستاذ الذي استدعاني إلى مكتبه أنّني أعجز عن كتابة قصيدة بتلك الروعة، وزعمت أن موحوش هو من كتبها. لكنّني غفلت عن أن اسمي الكامل يذيّل أسفل الورقة، متبوعًا بتاريخ كتابتها. الحق أن الأستاذ كان لطيفًا ومنفتحًا أكثر مما توقّعت، دسّ الورقة في جيبي وهو يهمس: «يبدو أن شيطان شِعرك يزورك يوم الجمعة!».

الرسالة الثانية

لا أرغب في رؤيتكِ وقد أصبحت بدينة وتجرّين خلفك دزّينة أطفال بأحجام مختلفة. أفضّل أن تبقي هكذا، طفلة بملامح بريئة وضفيرتين طويلتين وابتسامة حلوة. رؤيتك تقلّب مواجعي، فقد كان بالإمكان أن تكوني زوجتي، لولا أن شيئا ما حدث غيّر أحداث الرواية. وكما في معظم الروايات، قرّرت أن أهاجر، كي أبني نفسي.. طابقًا طابقًا.

الرسالة الثالثة

موحوش الكلب انتقل إلى الثانوية، والأهمّ أنه تزوّج سمّونة. نعم تزوّجك. أيتها الغبية، لعلك صدّقت أنه من كتب القصيدة!

الرسالة الرابعة

قد أعود إليها في وقت لاحق،

وقد لا أعود.

الأمر ذاته ينطبق على الرسائل الستّ المتبقية.

هذا الفيسبوك خطير فعلا. من حسن الحظّ أنّني لم أفتح حسابًا فيه، وهذا يجنّبني صداع ما كان يُحتمل أن يحدث فعلاً.

أما مقران، فلا يقل سوءًا، هو يتمتّع بالقدرة ذاتها على التعدّد.

الحالة الأولى

أستاذ العلوم الشرعية، الذي ضبط القصيدة الشهيرة.

الثانية

زميلي في التشرّد. يفترش قطعة كرتون غير بعيد عني ويتدثّر بغطاء سميك متّسخ، وينام في دعة، دون أن تزعجه فوضى وضجيج العالم المتحرّك من حوله.

الثالثة

عجوز تعيس أشفقت عليه، وظّفته بوابا في الشركة، فاختلس منّي بعض المال والوثائق الهامّة واختفى.

الرابعة

جاري في الطابق السادس، تجمعني معه هواية مشتركة.

الخامسة

دقّ بابي بُعيد منتصف الليل، وهدّدني بالطرد إن لم أسدّد ثمن الإيجار. ترجّيته أن يمهلني ثلاثة أيّام. كانت خطّة لأفلت منه ساعتها فقط، دون أن أفكّر في ما ينتظرني بعد ثلاثة أيام.

حالات أخرى

سائق التاكسي، بائع التحف القديمة، قابض الحافلة، موزّع البريد، المعلّم، الطبيب النفساني، مقدّم النشرة الجوية وآخرون. الناس كلّهم، أو معظمهم في حقيقة الأمر، ليسوا سوى مقران.

بالنسبة لسمّونة ومبروكة، لا يختلف الأمر كثيرًا.

لكن، عليّ أن أفهم أمرًا هامًّا، وهو أن موحوش غير موجود إلاّ في رأسي، سمّونة أيضا ومبروكة وجدّي والصرصور الكبير الذي أصبح بحجم كبش ثم بحجم فيل، ومقران ومفتّش التربية والطبيب النفسي.

إذن، عليَّ ألاّ أنزع ملابسي التي ارتديتها للتو، وألاّ أرمي حذائي جانبًا، وألاّ أغلق النافذة، وألاّ أطفئ المصابيح، وألاّ أعود إلى الفراش.

المشكلة أنّني إن خرجت، فلا أحد يضمن أنّني لن ألتقي موحوش في المقهى وسمّونة في الكافتيريا، ومجدّدًا موحوش في البار.

الاحتمال يظلّ واردًا.

إذا نسيتَ تفاصيل ما سيحدث، فعُد إلى الجزء السابق من هذا الفصل. الأمر أشبه بحلقة مفرغة. تذكّر، إذن، أن الفصل الأوّل لم يبدأ بعد.

الفصل الأوّل

ولكنّني لن أظلّ هنا إلى الأبد. سأركب أوّل سيارة أجرة، وأذهب لزيارتها.

لا أذكر كم عامًا، بالتحديد، مرَّ وأنا واقف هنا مثل تمثال يراقب حركة المارّة والسيّارات، التي لا تهدأ. مضى الجميع. بعضهم استقلّ تاكسيات أو حافلات، وأكمل آخرون طريقهم سيرًا على الأقدام، ولم أزل قابعًا في مكاني دون حراك.

سأزورها ولا يهمّ كيف، عبر تاكسي أو حافلة أو طائرة أو باخرة أو مكّوك فضائي أو طبق طائر. المهمّ أن أراها. أشعر أن أحدنا سيختفي قريبًا، وكم يرعبني أن يحدث ذلك دون أن نرى بعضنا، دون أن نثرثر ونحن نرتشف القهوة ذات المذاق الخاص من يديها.

يمرّ تاكسي.

يمرّ تاكسي ثان.

يمرّ ثالث.

ألوّح بيد.

ألوّح بكلتا يديّ. أصرخ.. أركض وراءها ككلب، لكن دون جدوى. كما لو أن صوتي غير مسموع. كما لو أنّني غير موجود أصلاً. لعلّني كذلك، وإلاّ فما تفسير بقائي هنا، على الرصيف، كل هذا العمر؟

في هذه اللحظة الممتدّة، لا أحلم إلا بشيء واحد: سيّارة تركن أمامي وتأخذني إليها. سيّارة أجرة أو سيّارة صديق يعبر صدفة. موحوش مثلا! اعتاد أن ينبلج في كلّ الأمكنة والأزمنة، دونما موعد أو اتّفاق. لماذا لا يفعلها الآن؟

تاكسي أصم

يتوقّف أحدهم أخيرًا، يسألني عن وجهتي، أقفز إلى الداخل دون أن أجيب. لا وقت أضيّعه في الإجابة. أقصد أن ثمّة متّسعًا من الوقت، في الطريق، لأجيب عن كل الأسئلة التي قد تتبادر إلى ذهنك. خذني إليها حالا. بيتها يقع هناك، في نهاية الشارع س. وبالضبط أمام مبنى ما. أَسرع قدر ما استطعت. أضعتُ ما يكفي من العمر ولا أريد أن أتأخّر أكثر. على الأرجح، سأجدها أصبحت عجوزًا. لا عجب، فقد كبرتُ أثناء الانتظار. أضعت شبابي وجزءًا من طفولتي في الطريق. لا أبالغ، أُنظر إلى رأسي الذي اشتعل شيبًا.

فعلاً، العالم صغير كما يقولون. سيّارات الأجرة حوّلته إلى قرية صغيرة. لكنني أحتاج إلى ضربة على رأسي كي أتأكّد من أنّني لا أحلم. يا الله! قبل قليل كنت أتساءل لِمَ لا تظهر كعادتك وتأخذني معك، وها أنت تفعلها. إنك خطير يا موحوش!

إنها فرصة سعيدة. لنضربْ عصفورين بحجر واحد إذن، أو دعنا نضرب سربًا كاملاً. لم نلتق منذ زمن طويل جدًّا. وهذه مناسبة لنتحدّث. أمامنا ساعة قبل الوصول إلى منزل خالتي، لنثرثر كما كنّا نفعل في السابق، حتّى وإن فقدتُ القدرة على النطق وفقدتَ حاسة السمع.

ليتك تستطيع سماعي يا موحوش. ليتني أستطيع التحدّث. أودّ أن أصرخ بأعلى صوتي: «خذني إليها». خالتي مبروكة هي المخلوق الوحيد الذي اشتقت إليه على مدار التاريخ وامتداد الجغرافيا. بينما بقية السينات لا تعني لي شيئًا.

الوقت يمرّ، السيّارة مركونة وسط سلسلة من السيّارات، لا أعرف من أين تبدأ وإلى أين تنتهي، ونحن جالسان، صامتان، يحدّق كل واحد منّا في الآخر. لا أستطيع الحديث، ولا تستطيع سماعي.. محتجزان. ليس بمقدورنا التقدّم مترًا واحدًا، ولا العودة إلى الوراء.

موحوش.. هل تسمعني؟

حسنًا، حسنًا.. لا تغضب رجاءً. سأنزل، لكن تذكّر جيّدًا أنك تركتني وحيدًا وتائهًا وسط هذه الصحراء. سأضيع، وأنت وحدك من يتحمل المسؤولية كاملة. أمام الله،

وأمام مبروكة.

تاكسي كاذب

ولماذا تذهب إلى مبروكة؟

لماذا لا تأتي هي إليك؟

صغيري.. أيها المسكين! كم سنة مرّت وأنت تنتظر؟ أضعتَ كل هذه السنوات من عمرك كي تراني! لن تنتظر إلى الأبد، ها قد أتيت إليك. اركبْ معي، اشتريت هذه السيّارة الفارهة لأجلك. ستكتشف، الآن، الوجه الآخر لخالتك مبروكة. لم أعد عجوزًا كما تصوّرتني قبل قليل. أُنظر، أصبحت شابّة في مقتبل العمر.. أصغر منك،

ومن سمّونة.

أنت تشكّ في الأمر. أليس كذلك؟

أقسم أنّني هي، خالتك. ولكي تتأكّد، سأقص عليك، في طريقنا إلى البحر، بعضًا من الحكايات التي كنت أرويها لك قبل النوم، حين كنت صغيرًا.

أخبرني، ماذا حلّ بك يا صغيري البائس؟ أصبحت شيخًا.

الآن، أنا من عليه أن يرتاب في الأمر. لست متأكّدة تمامًا من أنك هو.

نحن في موقف حرج.

س: ماذا علينا أن نفعل الآن؟

ج: أقترح أن نكمل.

س: ثمة تتمّة إذن؟!

ج: على الأرجح نعم.

تتمّة الفصل الأوّل

ولكنني سأقطع الطريق السيّار. لا يدور في رأسي غير أمر واحد: أن أعبر، بأقصى سرعتي، بين السيارات المارّة بأقصى سرعتها، جيئة وذهابًا. أعبر كأن شيئًا لم يكن. كأن شيئًا لم يمرّ بينها. لا يفصلني عن كل واحدة منها سوى نصف مليمتر ونصف جزء من الثانية. وحينها سأجدني هناك، في الجهة المقابلة، أكثر قربًا من خالتي مبروكة.

عدا ذلك، كل الاحتمالات الأخرى مستبعدة.. تقريبًا.

الاحتمال الأوّل

تصدمني السيّارة الأولى، فينسحق جسدي تحت عجلاتها الدائرة بسرعة مائة وستين كيلومتر في الساعة.

الاحتمال الثاني

تصدمني السيّارة الأولى، وتقذف بي إلى مكان غير بعيد، عند حافّة الطريق الذي يصل الشرق بالغرب.. تحديدًا إلى نقطة البداية التي أقف فيها الآن. أسقط واقفًا على قدميَّ مثل هرّ. أجدُني معافى تمامًا، وحينها سيكون عليَّ التفكير في الاحتمالات المتبقيّة.

الاحتمال الثالث

تصدمني السيّارة الأولى، وتقذف بي إلى السيّارة الثانية التي تقذفني إلى السيّارة الثالثة التي تقذفني إلى الرابعة التي تقذفني إلى الخامسة التي أنتهي مطحونا تحت عجلاتها الدائرة بسرعة مائة وستين كيلومتر في الساعة، أو لنقل بسرعة مائة وعشرين.

الاحتمال الرابع

تصدمني السيّارة الأولى، وتقذف بي إلى السيّارة الثانية التي تقذفني إلى السيّارة الثالثة التي تقذفني إلى الرابعة التي تقذفني إلى الخامسة التي تقذفني، مثل غطاء قارورة مياه غازية في أوج احتقانها، إلى الرصيف. أسقط واقفًا، وأجدني معافى تمامًا، فأنفض ملابسي وأكمل وجهتي، وقد أصبحت خالتي مباركة قاب شارعين أو أدنى.

الاحتمال الخامس

تصدمني السيّارة الأولى، وتقذف بي إلى..

أيّة لعبة سخيفة هذه؟

إن حسبتم معي، فستجدون أنّني أضعت إحدى عشر دقيقة، على الأقل، مع هذه الاحتمالات التي لن تنتهي أبدًا. عليَّ أن أكفّ عن هذا الهراء وأتّخذ القرار.. أقصد أن عليَّ المضيّ في تنفيذ القرار الذي اتّخذته.

لا داعي لاستخدام سُلّم المشاة. فعلى الأرجح، سيأخذ

منّي إحدى عشر دقيقة أخرى.

النهار يوشك على الانقضاء، وليس أمامي كثير من الوقت لأضيّعه. أفضّل أن أكمل الساعات المتبقّية مع خالتي مبروكة. اشتقت إليها كثيرًا، ولا شكّ أنها اشتاقت إليَّ أيضا. من المؤكّد أنها ستطير فرحًا عندما تراني.

تطير؟

الاحتمال الأوّل

تطير من النافذة مثل باتمان.. أو سوبرمان.

الاحتمال الثاني

تصنع من الريش الذي تحشو به وسائدها الناعمة، جناحين كبيرين، وتقف عند شرفتها محاولة الطيران. في الأسفل، تتجمهر أعداد كبيرة من الفضوليين، وأنا بينهم أهتف وأشجّعها بحماس: «خالتي مبروكة.. خالتي مبروكة.. أنت تستطيعين. ستنجحين».

ماذا لو لقيت مصيرًا مشابهًا للذي لقيه عباس؟

لا أريد التفكير في هذا الاحتمال البشع. هناك طرق أفضل.

الاحتمال الثالث

عن طريق بساط الريح. إنها طريقة سحرية، والأهمّ أنها أكثر أمنًا.

الاحتمال الرابع

بواسطة المكنسة السحرية.. مكنسة المشعوذات، كما في أفلام الكرتون.

أمزح. من المؤكّد أنّها ستطير فرحًا عندما تراني، لكنّها لن تتجاوز سقف الغرفة.

لم أرها منذ سنة. في المرّة الأخيرة لم أستوعب أن تلك العجوز النحيلة التي لم تبق في رأسها شعرة سوداء واحدة، ولم تبق في فمها ضرس واحدة هي خالتي مباركة. تركتها أصغر بكثير، تطفح بالقوّة والحيوية. لا أصدّق أن عشر سنوات، عشر سنوات فقط، تفعل بالمرء كلّ هذا. لم أُرد تصديق أنها الشخص المقصود، وهذا ما دفعني لأسألها إن كانت خالتي موجودة في البيت. ابتسمت، ثم قهقهت. المسكينة، اعتقدت أنها إحدى دعاباتي السمجة.

والحقيقة أنّني شعرت، لسبب ما، أن حكاية الفتاة ذات القبّعة الحمراء تتكرّر معي. فالعجوز المستلقية في الفراش متظاهرة بالمرض، ليست سوى الذئب الذي الْتهم خالتي الحقيقية.

ما الذي عليَّ فعله إذن؟

الاحتمال الأول

أقفز من النافذة لأنجو بجلدي، تاركًا جدّتي، أقصد خالتي، لمصيرها المحتوم.

الاحتمال الثاني

أتظاهر بأني أهمّ بدخول الحمام، ثم أتسلّل من الباب لأنجو بجلدي، تاركًا خالتي لمصيرها المحتوم.

الاحتمال الثالث

أخجل من ذكره.

ينبغي ألاّ أكون جبانًا أكثر من اللازم. دعونا ننتقل إلى الاحتمال الرابع إذن.

الاحتمال الرابع

في هذه الحالة، بإمكاني الاتّصال بالشرطة، أو بالحماية المدنية.

ما زلتُ بحاجة إلى قليل من الشجاعة.

الاحتمال الخامس

بطريقة ما، أُخرج خالتي مبروكة من بطن الذئب الشرّير. فتهتف لي: «مرحى مرحى يا بطل».

بطل؟!

الاحتمال السادس

أوجّه لها أصبع الاتّهام مباشرة ودون تردّد، فتمسكه وتلويه بشدّة. ما زالت قوية..

ـ مازلتَ بليدًا.. الغربة لم تغيّرك.

بعد فاصل مُعبّق برائحة القهوة، وبالحكايات القديمة والثرثرات العائلية، تضيف: «لكنّك أصبحت كهلاً. ألا تفكّر في الزواج؟».

الحديث عن الزواج يحيلني رأسًا على سمّونة.

ما أخبارها؟

آه أكبر أولادها يوشك على إجراء امتحانات البكالوريا العام القادم؟ هذا دليل آخر على أنّني أصبحت كهلاً. كأن الأمر يحتاج إلى أدلّة.

أتمنّى ألاّ تكون في البيت، وأرجو ألاّ تدعوها للمجيء. في المرّة الأخيرة ألحّت على أن تتّصل بها كي تأتي لترى ابن خالتها العائد من سفر طويل، فادّعيت بأني مرتبط بموعد هام وخرجت، واعدًا إياها بالعودة في أقرب وقت، لكن سنة مرّت قبل أن أقرّر العودة من جديد. لا أرغب في رؤية سمّونة وقد أصبحت بدينة وتجرُّ خلفها دزّينة أطفال بأحجام مختلفة. أفضّل أن تبقى هكذا، طفلة بوجه بريء وضفيرتين طويلتين وابتسامة حلوة. رؤيتها تقلّب مواجعي، فقد كان بالإمكان أن تكون زوجتي، لولا أن شيئًا ما حدث غيّر أحداث الرواية. وكما في معظم الروايات، قرّرت أن أهاجر، كي أبني نفسي.. طابقًا طابقًا.

فكّرت في أمر، لكنّني لن أقوله. إذ لا داعي لأن أكون صريحًا أكثر من اللازم وأقول إن ورشة البناء مازالت مفتوحة. تبًّا، لقد قلته.

لنعد إلى موضوعنا.

كنت أقول أنّني أحببتها.. أحببتها بجنون وطيش. في السنة الثالثة في الإكمالية، ضبط مقران، أستاذ العلوم الشرعية، قصيدة حب كتبتها لسمّونة لدى أحدهم، إن لم تخنّي الذاكرة فهو موحوش، نعم إنه موحوش. أكاد أجزم بذلك لسببين: أوّلهما أنه كان أكثرنا في القسم تفوّقا في مادة اللغة العربية، وهو ما دفعني لإعطائه القصيدة، ليضفي عليها لمسته الخاصّة، ويضبط لغتها ووزنها جيّدًا، وثانيهما، أن أحدًا غير موحوش كان سيُقاوم ويرفض تسليم الورقة بتلك السهولة. ولحقدي عليه، تنصّلت من مسؤوليتي. قلت للأستاذ الذي استدعاني إلى مكتبه أنّني أعجز عن كتابة قصيدة بتلك الروعة، وزعمت أن موحوش هو من كتبها. لكنّني غفلت عن أن اسمي الكامل يذيّل أسفل الورقة، متبوعًا بتاريخ كتابتها. الحق أن الأستاذ كان لطيفًا ومنفتحًا أكثر ممّا توقّعت. دسَّ الورقة في جيبي وهو يهمس: «يبدو أن شيطان شِعرك يزورك يوم الجمعة!».

كنت أحبّها وأحبّ رؤيتها. كلّ يوم، وفي تمام الثامنة صباحًا، أقف عند باب الثانوية لأراها، ثم أفعل الشيء ذاته في منتصف النهار، وعلى الواحدة، وعلى الرابعة مساءً. حتّى إن كثيرًا من زملائي السابقين اعتقدوا أنّني انتقلت إلى الثانوية، بينما الحقيقة أنّني طُردت من الإكمالية.

طُردت، بينما نجح موحوش في التسلّل إلى الثانوية بقدرة قادر. مازلت حتى هذه اللحظة أتساءل كيف نجح في ذلك، بل أتمنّى الالتقاء به، فقط لأسأله عن السرّ. لم يكن يُتقن

شيئًا. حتّى لا أظلمه، أعترف أنه كان متفوّقًا في مادة اللغة العربية، في اللغة العربية فقط، أمّا في الرياضيات والفيزياء واللغات الأجنبية والتاريخ والجغرافيا، فكان بمثابة جحش حقيقي، جحش ببردعة، كما كان يقول المرحوم جدّي.

الاحتمال الأول

قدّم رشوة لمدير المدرسة.

لكن لنكن واقعيين.. كيف له أن يدفع أي مبلغ مهما كان تافهًا؟ البائس كان يأتي إلى القسم بجوارب ممزّقة. هذا إذا افترضنا، طبعا، أن الرشوة ليست أقلّ من قطعة علك.

الاحتمال الثاني

قدّم رشوة من نوع آخر.

هههههه. أحيانا أتحوّل إلى شخص شرّير وسيء. هذا ما كان موحوش نفسه يقوله لي.

الاحتمال الثالث

أن أحدًا من أقاربه توسّط له لدى..

عليَّ ألاّ أنسى أن موحوش، في رواية أخرى، هو قريب مفتّش التربية.

أيًّا كانت الطريقة، المهمّ أن الكلب انتقل إلى الثانوية، والأهمّ أنه تزوج سمّونة. نعم تزوّجها. ربما صدّقت الغبية أنه من كتب القصيدة.

لا أريد إكمال الحكاية. قد أُكملها في وقت لاحق، إذ عليَّ، كما قلت سابقًا، أن أقطع هذا الطريق اللعين بأقصى سرعتي.

سأفعل.

فعلتها..

عبرت الطريق المزدحم بسيارات آتية وأخرى ذاهبة، ولم يحدث معي شيء يُذكر، لم يصبني أيّ مكروه، تمامًا كما كان مطروحًا في الاحتمال الأوّل. ماذا لو أعدت الكرّة؟

سأحاول الاختصار، لأن هذا الجزء من هذا الشيء يُشرف على النهاية.

أعدتها مرّات عدة.. ذهبت ثم عدت، ثم ذهبت ثم عدت، أكثر من عشر مرّات على ما أعتقد. صدّقوا أو لا تصدّقوا، لم يحدث شيء، لم تلمسني أيّة سيارة. لم تقذفني الأولى إلى الثانية والثانية إلى الثالثة والثالثة إلى الرابعة، ولم أنته مطحونًا تحت عجلات السيّارة الخامسة. ما زلت وسط الطريق أركض مثل بغل. لا شيء حدث، باستثناء أن ذهابي وإيابي المتكرّرين أثارا انتباه المارّة الذين أخذ بعضهم ينظر إليَّ بدهشة وفضول.

لا يمكن أن يكون الأمر محض صدفة. عندما تتكرّر الأشياء نفسها بالتفاصيل نفسها، لا يصبح ثمّة مكان للصدفة. ثمّة خطأ ما إذن.. دعوني أفكّر في الأمر.

الاحتمال الأول

لا يوجد طريق سريع، ولا بطيء. لا وجود لسيّارات آتية أو ذاهبة أو متوقفة. حتّى ممرّ المشاة غير موجود. كلّ ما

في الأمر هو مساحة من التراب أو الرمل، وأنا أعدو فيها كجحش يثير الغبار وانتباه الناس.

الاحتمال الثاني

الطريق في مكانه، وممرّ المشاة أيضًا. السيّارات ذاهبة وآتية بأقصى سرعتها. أمّا العنصر غير الموجود في القصّة كلّها، فهو أنا. من الواضح أنّني غير موجود، وإلاّ لصدمتني تلك السيّارات وأنا أروح وأجيء بينها. بالطبع، لا يمكنها أن تصدم شخصًا غير موجود. في هذه الحالة، فإن خالتي مبروكة غير موجودة هي الأخرى. سمّونة أيضا، وموحوش الذي اختطفها مني، ودزّينة الأطفال التي ترتّبت عن ذلك، ومقران أستاذ العلوم الشرعية.

في كلا الاحتمالين، ثمّة احتمالان لا ثالث لهما:

الاحتمال الأول

أنا مجنون. وهذا الاحتمال تتفرّع عنه قائمة طويلة وعريضة من الاحتمالات التي لا أريد الخوض فيها الآن، فمجرّد التفكير فيها سيصيبني بالجنون. على افتراض أني لست كذلك هههههههههه.

الاحتمال الثاني

أنا أحلم. وهذه الفرضية يتفرّع عنها احتمال رئيسي، وهو أنّني أعيش كابوسًا.

إمكانية تفرّع الكابوس قائمة.

الفصل الثاني

أتصوّرني في هذه الحالة، كهلاً غريب الأطوار، على عتبة السادسة والخمسين، يعاني حالة متأزّمة من انفصام الشخصية. اثنان في واحد، بلغة الإعلانات: جسد واحد بعين واحدة، تتقاسمه بالتناوب روحان وعقلان وقلبان.

بالنسبة للجسد، وكما هو واضح، ثمّة بريق في أعلى الرأس، وهو ما نصطلح على تسميته صلعة. إذا نزلنا قليلاً، سنجد عينًا زجاجية تقابل الطبيعية. نواصل النزول فنصل إلى شفتين متناهيتي الدقة، لدرجة أن العليا تكاد تكون منعدمة، ولكن بعد أن نجتاز الأنف المعقوف الذي يكلّله ثؤلل أكبر من الحجم العادي. وإذا واصلنا، فسنصطدم بكرش مترهّلة تتدلّى كعضو إضافي غريب لكائن سيامي. من المؤكد أنّني أرسم صورة بشعة عنّي. لكن الحقيقة أنّي لست بتلك البشاعة التي قد تتصوّرونها. هذه العناصر متناغمة بشكل ما، بحيث تؤلّف في النهاية شيئًا لا أبالغ إن قلت إنه وسيم وأنيق. إن ارتبتم في الأمر، بإمكانكم إلقاء نظرة على بطاقتي المهنية التي تحمل صورتي وبياناتي الشخصية..

على اليمين

السيد: س

تاريخ الميلاد: قبل ستة وخمسين عاما.

مكان الميلاد: س

الإقامة: س

المهنة: مدير الشركة س

على اليسار

الصورة.

أنظروا.. ألست وسيما؟

آه، أنا هو إذن!

أحيانًا يكون عليّ النظر إلى البطاقة لأتذكّر ذلك. وأعتقد أن هذا هو السبب الرئيسي لاختراع مثل هذه البطاقات.

مدير الشركة س!

ذلك المدير الشرّير والفاسد هو أنا؟

أنا مصدوم.

الآن وفورًا، عليَّ أن أجد مرآة، لأتأكّد ممّا إذا كان الوجه الذي سيطالعني عليها مطابقًا، أو مشابهًا على الأقلّ للذي في الصورة. إن لم يكن كذلك، فأنا في ورطة حقيقية، وقد أُتّهم بانتحال شخصية أحدهم. احتمال أنّني أحمل بطاقة شخص غيري يظلّ واردًا.

عليَّ تذكّر أمر يقودني إلى معرفة الحقيقة. أذكر جيّدًا

القصّة التقليدية للمدير المتعجرف والموظّف التعيس. لكن المشكلة أنّها تحضرني بنسختين مختلفتين.

النسخة الأولى

تحت صورة المدير الأوّل لشركة الوطن، كان يستلقي على كرسيّه الوثير، واضعًا رجليه على المكتب. حذاؤه الجلدي اللمّاع الجميل، الشهيّ، هو أول ما التقيت به وأنا أدلف بفنجان قهوة. وضعت الفنجان على الطاولة وأنا أتأمّل الحذاء. أغراني المشهد وكدت لا أتمالك نفسي. لم أتمالك نفسي فعلاً. جلست على الكرسي المقابل وحذاؤه قاب شبرين أو أدنى من وجهي. اعترفت له بكل شيء. أخبرته بأن حذاءه جميل، شهيّ ولا يُقاوم. قاومت لأقمع في داخلي رغبة شاذة ومفاجأة. وددت أن أخرج منديلي وأنكبّ عليه لأمسحه، فيعود أكثر لمعانًا. كانت قدماه تتحرّكان يمينًا وشمالاً وهو يهمّ باختلاس لحظة المتعة الأولى، لحظة أوّل رشفة من القهوة التي تفنّنت في إعدادها. لكن شيئًا ما حدث قلب السيناريو رأسًا على عقب. بصق القهوة وسلسلة شتائم متلاحقة، أقلّها: «تنقصك بردعة فقط لتثبت لي أنك جحش حقيقي. هل بلت في الفنجان؟».

هذه الشتيمة سرقها من قاموس جدّي لعنه.. رحمه الله.

النسخة الثانية

تحت صورة المدير الأوّل لشركة الوطن، كنت مستلقيا على كرسيّي الوثير، واضعًا رجليّ على المكتب. حذائي الجلدي اللمّاع الجميل كان أوّل ما التقى به وهو يدلف

بفنجان قهوة. وضع الفنجان على الطاولة وهو يتأمّل الحذاء. أغراه المشهد وكاد لا يتمالك نفسه. لم يتمالك نفسه فعلاً. جلس على الكرسيّ المقابل وحذائي قاب شبرين أو أدنى من وجهه. اعترف لي بكل شيء. أخبرني بأن حذائي جميل، شهيّ ولا يُقاوم. من المؤكّد أنه كان يقمع في داخله رغبة شاذة ومفاجأة. ودّ أن يخرج منديله وينكبّ عليه ليمسحه، فيعود أكثر لمعانًا. كانت قدميَّ تتحرّكان يمينًا وشمالاً وأنا أهمّ باختلاس لحظة المتعة الأولى، لحظة أوّل رشفة من القهوة. لكن ما حدث بعد ذلك قلب السيناريو رأسًا على عقب. بصقت القهوة وسلسلة شتائم متلاحقة، أقلُّها: «تنقصك بردعة فقط لتثبت لي أنك جحش حقيقي. هل بلت في الفنجان؟».

هذه الشتيمة سرقتها من قاموس جدّي رحمه الله.

أكنتُ أمام المكتب أم خلفه؟ هل أنا من أعدّ القهوة أم من همّ بارتشافها؟ أأنا من أطلق سلسلة الشتائم المتلاحقة أم من استقبلها؟ لم أعد متأكّدًا من شيء، حتى أنّني لا أذكر جيّدًا ما حدث بعد ذلك..

الاحتمال الأوّل لتتمّة النسخة الثانية

قام من مكانه، وهو ينظر إليَّ بحقد. وكأنّني أكتشفه للمرّة الأولى: جسد ضخم وعينان تقدحان شررًا. إنه أقوى ممّا كنت أتصوّر، أقوى بكثير من الذي دخل منحنيًا، وفي يده فنجان قهوة خفيفة وباردة. بإمكانه أن يمسكني من عنقي ويحملني بيد واحدة، ثم يقذف بي من النافذة.

ما سيحدث بالتصوير البطيء

سيفتح فمه،

سيهم بقول شيء ما،

ستنسل هذه العبارة من فمه: «احترم نفسك يا جحش»،

ستتبعها سلسلة شتائم أخرى،

سيمد يده،

سيمسكني من عنقي،

سيحملني بيد واحدة،

سيقذف بي من النافذة..

ستنكسر.

سيتطاير الزجاج..

سأهوي من الطابق السادس.. سأهوي.. سأهوي..

الاحتمال الثاني لتتمّة النسخة الثانية

قام من مكانه، وهو ينظر إليَّ بحقد. وكأنّني أكتشفه للمرّة الأولى: جسد ضخم وعينان تقدحان شررًا. إنه أقوى ممّا كنت أتصوّر، أقوى بكثير من الذي دخل منحنيًا، وفي يده فنجان قهوة خفيفة وباردة. بإمكانه أن يمسكني من عنقي ويحملني بيد واحدة، ثم يقذف بي من النافذة.

ما سيحدث بالتصوير البطيء

سيفتح فمه،

سيهمّ بقول شيء ما،

ستنسلّ هذه العبارة من فمه: «فعلا أنا جحش»،

ستتبعها سلسلة اعتذارات أخرى،

سيمدّ منديله إلى حذائي ليلمّعه.

وحينها، سأسترخي على المكتب لأستمتع أكثر.

أحيانًا علينا أن نحسم الأمور، ولا ندعها هكذا محتكمة إلى الاحتمالات المتوالدة. عليَّ اختيار أمر واحد، حتّى إن لم يكن الحقيقي بالضرورة. هذا يجعلني أختار النسخة الثانية. لا يمكننا بلوغ اليقين، لكن شتيمة جدّي هي السرّ الذي قادني إلى الاقتراب من الحقيقة.

ما لم يُكتب على البطاقة، هو أنّني لا أنام مثل البشر. أقصد أنّني لا أنام إلا نادرًا، وهذا أحد أوجه غرابتي. فاستسلامي للنوم يعني أنّني أمنح فرصة ذهبية للكوابيس المتربّصة بي طيلة اليوم لتُطبق عليّ. لا أستسلم له بسهولة، فأنا عنيد بطبعي.. أقاوم، أمانع.. أستعين بكوب قهوة ضخم. آخذ ثلاثة أقراص من دواء مضادّ للنوم.. ثم أنام.

بمجرّد أن آخذ حصّتي اليومية من عادتي السرية، التي أفضّلها هنا، في الفراش، أنتقل إلى عالم مزعج وشرّير، مزدحم في الغالب بالمسوخ. في البداية، تنبلج الصورة أمامي عن شاشة ألوان برؤية فائقة الجودة. أنهض مجدّدًا وأستلقي على الكنبة. أحمل جهاز التحكّم عن بعد وأضع نظّاراتي

التي تتيح لي رؤية ثلاثية الأبعاد، حتّى أعيش الكابوس بكل أبعاده، وأندمج مع أحداثه وتفاصيله وشخوصه. أضغط على قائمة الخيارات فتظهر ثلاثة اقتراحات:

قائمة الأحلام السعيدة

قائمة الكوابيس

القائمة الحيادية

القائمة الأخيرة تعني قضاء ساعات الليل بسرعة جزء من الثانية، بحيث لا يسعدك حلم، ولا يرعبك كابوس.

لسبب ما، أضغط على الخيار الثاني، فيحيلني على القائمة التالية:

الكابوس الأول

الكابوس الثاني

الكابوس الثالث

الكابوس الرابع

الكابوس الخامس

الكابوس السادس

ستّة خيارات لا سابع لها. إذا كان توقيت الكوابيس قصيرًا، فسأستمتع بأكبر عدد منها. أمّا إن كان طويلاً، فقد أنهض من النوم دون أن أكمل كابوسي الأوّل. حدث معي ذلك مرارًا، وفي هذه الحالة كنت أضطرّ لإكمال الجزء المتبقّي

في الليلة الموالية. وفي بعض الاستثناءات، يتألّف الكابوس من حلقات مفرغة، مثل مسلسل مملّ.

لنكن أكثر صراحة، الأمر أسوأ. فالمسلسلات تنتهي بحلقة أخيرة دائمًا، مهما طال انتظارها، بينما بعض مسلسلاتي لا تنتهي أبدًا، كما هو الأمر بالنسبة للكابوس الذي لا أذكر منذ متى، بالضبط، بدأت أشاهده.

في هذه الحالة، أجدني بين مبروكة وسمّونة، وهما تتجاذبانّني بقوّة. تمسك الأولى بيدي اليمنى، والثانية باليسرى، وتجذبانّني بكل ما أوتيتا من قوّة، يمينًا ويسارًا. أحسّ بأن ذراعيّ ستنفصلان عن جسدي في أيّة لحظة، ثم تأخذان في التمدّد، كما لو كانتا مطّاطيتين. تذهب مبروكة في جهة، وسمّونة في جهة أخرى ومعهما يداي، حتى تختفيا. لا أعرف إلى أيّ شارعين بالتحديد وصلت يداي، لكنهما في لحظة ما تعودان إليّ. لا أكاد أستعيد أنفاسي، حتى ينبثق جدّي من مكان ما، ثم يشرع في ضربي على جبيني بعصاه الطويلة والدقيقة. يضربني وهو يصرخ: «جحش.. جحش.. جحش.. ».

لن أدّعي أن قوّة غريبة تدفعني للضغط على هذا الخيار دون غيره. السبب أن قائمة الأحلام فارغة على الدوام، فهي تضمّ عددًا محدودًا من الأحلام التي استهلكتها، أو التي انتهت مدّة صلاحيتها قبل أن أقوم باستعمالها. أمّا القائمة الحيادية فلم أتمكّن أبدًا من الولوج إليها، مهما ضغطت على أزرار جهاز التحكّم عن بعد، ومهما غيّرت بطّارياته. من الواضح أنها معطّلة. بينما للقائمة الثانية قدرة عجيبة على التوالد، كل كابوس يتفرّع عن قائمة جديدة

من الكوابيس، وهكذا دواليك.. إلى ما لا نهاية. والحقيقة أن هذا كان بمثابة امتياز، إذ كان ثمّة أمر جديد دائمًا، أمر غريب وغير متوقّع مختبئ خلف قائمة الخيارات، وهو ما أضفى على الأمر متعة بدأت أتعوّد عليها.

لن أفكّر كثيرًا، وسأضغط حالاً على الرقم ستّة. الحقيقة أنّني أحب هذا الرقم. الكثيرون يسألون عن سر العلاقة التي تربطني به، وبالطبع لا أقدّم إجابات نهائية. أكتفي بصمت مرفق بابتسامة خبيثة في غالب الأحيان، وفي أحيان نادرة، وتحت وطأة الإلحاح، أقدّم إجابات مطاطية، هلامية، زئبقية، ضبابية، غامضة.. لاحظ أن وصفا واحدا ـ لا يحضرني الآن ـ ينقص لأكمل النصاب. رغم ذلك، فالأمر ليس بهذا التعقيد، إذ يكفي بعض من التدقيق ليلاحظ المرء أن لي أصبعًا صغيرًا زائدًا بين الإبهام والسبّابة، بالكاد تلحظه العين، إذ أحرص بشدّة على إخفائه.

أعتقد أنّني قدّمت، لتوّي، إجابة نهائية لكثير من الذين سألوني عن سر هذا الرقم في شيء كتبته في وقت سابق.

يخيّم الظلام. يبدو أن التيار الكهربائي انقطع. أرجو ألاّ يحرمني ذلك من متابعة كابوسي الليلة. تنشرع الأبواب والنوافذ ثمّ تنغلق فجأة. ولكن ما علاقة كل هذا بانقطاع الكهرباء؟

من الواضح أنّني أتواجد داخل الكابوس رقم ستّة.

كابوس تقليدي

ما الذي سيحدث الآن؟

تظهر الأشباح. تنبعث أصوات غريبة من الحجرات الأخرى. تخرج الأواني من المطبخ وتأخذ في الارتطام في ما بينها، مُحدثة ضجيجًا أشبه بالموسيقى، تنفلت ملابسي من الخزانة وتشرع في الرقص.

ماذا أيضًا؟

كابوس غير تقليدي.. نوعا ما

تخرج سيّدة بشعة من الجدار. بشعة جدًّا، ولن أتورّط في وصفها، حتّى لا أضيّع مزيدًا من الوقت. تمسك الميكروفون وتعلن عن الفقرة المقبلة: «سيداتي سادتي، نترككم الآن مع النسخة المشوّهة لمقطوعة بحيرة البجع.. السمفونية الخارقة.. الأسطورة.. رائعة تشايكوفسكي الموسيقية التي ألّفها عام.. ».

يصفّق الجمهور. ألتفتُ حولي. أراني وسط كوكبة من المخلوقات الغريبة، بعضها بأربعة أيدٍ، بعضها بأربعة وأربعين رجْلاً، بعضها الآخر له زعانف أو خراطيم أو أجنحة.

لحظة، سألقي نظرة على ويكيبيديا:

بحيرة البجع (Лебединое Озеро): هي إحدى روائع الموسيقي الرومانتيكي الروسي تشايكوفسكي الموسيقية التي ألّفها عام ١٨٨٧، والتي تضاف إلى تراثه الموسيقي العالمي في «الجمال النائم»، «كسّارة البندق» و«الأميرة النائمة».

تتضمّن «بحيرة البجع» أربعة فصول استعراضية موسيقية راقصة في باليه درامي من أربعة فصول، وكتب كلماتها بالروسية المؤلّفان في. بي. بيغتشين وفاستلي جلتزر، وعُرضت

لأول مرّة على مسرح البولشوي بموسكو في ٤ مارس ١٨٨٧ وقام بتصميم رقصات الباليه ماريوس بيتيبا.

أشاهد الفصول الأربعة التي يؤدّيها ممثّلون مشوّهون على وقع موسيقى مزعجة، أكثر إزعاجًا من ضجيج الأواني. لكن كل هذا لم يعد يثير لديَّ أدنى شعور بالمتعة والإثارة. أرمي النظّارات وجهاز التحكّم عن بعد جانبًا، وأذهب إلى الحجرة المقابلة، حيث البيانو العتيق الذي تركه جدّي.

سأعزف على البيانو.

سأعزف على البيانو ما تبقّى من الليل.

سأعزف على البيانو ما تبقّى من الليل روائعَ موسيقية تنسيني كل ذلك الإزعاج.

سأعزف على البيانو ما تبقّى من الليل روائع موسيقية تنسيني كل ذلك الإزعاج، لو كان البيانو موجودا فعلا. ذلك ألاّ وجود لبيانو في الحجرة الأخرى. لا وجود للحجرة الأخرى. ثمّة حجرة واحدة ضيقة أكاد أختنق فيها. أما جدّي فأشك أن يكون قد مات أصلا، لأنه ليس من النوع الذي يموت بسهولة.

بما أن البيانو غير موجود، دعوني أُلقي نظرة على الكابوس الثالث.

الفصل الثالث

ولكنّني لا أعرف ما الذي أغرى موحوش، وهو في رواية أخرى مخرج سينمائي معروف، في هذه الحكاية التعيسة والمملّة، فأراد تحويلها إلى فيلم سينمائي. رغم عدم اقتناعي، تمامًا، بالفكرة، رضخت لإصراره وكتبت شيئًا. غير أنه طلب منّي تعديله. عدّلته مرتين دون أن يحظى جهدي بإعجابه. لم أخسر شيئًا. في النهاية بات لديَّ ثلاثة سيناريوهات مختلفة. بإمكاني الاستعانة بمخرج لإنجاز ثلاثة أفلام را..

كنت سأقول ثلاثة أفلام رائعة.

السيناريو الأول

(خاص بتصفية حسابات قديمة. فحين كتبته لم أفكّر سوى في الانتقام من موحوش، لذلك تصوّرته ميتًا، أو بالأحرى مقتولاً. مات التعيس في ظروف غامضة، ولا تزال أسباب وطريقة موته مجهولة لحدّ الساعة. أيًّا كان، فهو يستحقّ ذلك. لم ينتبني أيّ تعاطف معه. بالعكس، تلذّذت بغيابه لأوّل مرّة. هنا كان عليَّ الاستعانة بشخصية تملأ الفراغ الذي تركه. فكّرت في سمّونة، لأنها الأنسب لهذا الدور، وكانت هذه النتيجة) نسيت أمرًا.. أستسمحكم بفتح الأقواس مجدّدًا (تعمّدت تغيير بعض الوقائع والأسماء

بغرض التمويه، لكن الحيلة لم تنطل عليه. والآن لا بأس من عرض السيناريو بنسخته الأصلية).

المكان: س

التوقيت: لا يهم

أريد كوب ماء بارد. وإن كان لديكم عصير برتقال أو ليمون مع قطع ثلج باردة، فسأكون ممتنّة لحضراتكم. يا إلهي، كم أنا سخيفة! هل رأى أحدكم يومًا ثلجًا ساخنًا؟

الحرارة لا تطاق هنا. أوه، أليس لديكم مكيّف؟ لا أصدّق أن مكتبًا جميلاً كهذا لا يحتوي على مكيّف. لعلّه معطّل. أليس كذلك؟

نعم، كوب ماء بارد من فضلك. لا يمكن أن أبدأ الحديث ما لم أبلّل ريقي.

سأخبركم بكلّ شيء. سأكشف لكم تفاصيل تسمعها لأوّل مرّة حول القضية سيّدي المحقّق. وحينها، ستشكرني على الخدمات التي قدّمتها للتحقيق، بدل أن تقول لأعوانك: «أخرجوا عنّي هذه العاهرة»، كما فعلت مع الآنسة س التي صادفتها للتوّ، خارجة من مكتبكم.

فعلاً، لا أفهم من أين يأتي أمثالها بذلك الكم من الوقاحة ليكتبوا كلاماً مثل الذي نشرته جريدتها في عددها الصادر أوّل أمس. المعلومات المغلوطة التي احتواها مقالها أصابتني بالذهول يا سيّدي، وتساءلت: كيف استطاعت أن تكتب ما كتبته وهي بعيدة عن موقع الجريمة بستمائة

كيلومتر؟ لا شكّ أنها اكتفت بنقل الإشاعات التي انتشرت بشكل مذهل بعد وقوع الجريمة، أو أنها استمعت، في أحسن الأحوال، إلى من أسمتهم شهود عيان. من يدري؟ هل هم شهود عيان فعلاً، أم أشخاص نقلوا لها ما نُقل إليهم عن أشخاص آخرين نُقلت إليهم الشائعات أيضا؟ بالنسبة لي، كلا الاحتمالين يؤدّيان إلى النتيجة ذاتها، وهي تغييب الحقيقة وعرقلة مجرى التحقيق.

هذه المعتوهة، ورغم أن مقالها الغبي جاء بهذا العنوان المثير: «القصّة الحقيقية لمقتل موحوش»، فعلت كل شيء إلاّ المساهمة في كشف الحقيقة. أُنظر يا سيّدي.. هي تدّعي أنه متورّط في شبكة دولية لتهريب المخدّرات، وأن قيادة العصابة قرّرت التخلّص منه بعد أن انسحب من الشبكة ورفض تنفيذ أوامر وجّهت إليه، وأنه شوهد عدّة مرات يرتاد المسجد بعد توبته. أنا أنقل، حرفيًّا، الكلام الوارد في الصفحة السابعة عشر من الجريدة. سيّدي، هل تصدّق أن موحوش المسكين، الذي لم يسبق له أن وضع سيجارة في فمه، عضو في شبكة دولية لتهريب المخدّرات؟

يا للوقاحة! أنت لم تخطئ حين طردتها من مكتبك. لقد التقيت بها في الممرّ، وبدت لي متذمرّة. قالت لي وهي تلوك العلكة: «لا أنصحك بالدخول، فقد بهدلني المحقّق وطردني. تخيّلي أنه نعتني بالعاهرة». قلت لها حين رأيت بين يديها نسخة من جريدتها الصفراء: «إن كنتِ الصحفية س. س، فلا شكّ أن سيادة المحقّق مصيب في وصفه». ثم مضيت إليك. لا يمكن أبداً ألاّ أمتثل لاستدعائكم أو أن أعرقل مسار التحقيق. يمكنكم أن تسألوا الجميع عنّي، وحينها سيقول كل

الذين تستجوبونهم بأنّني شديدة الانضباط وأحترم القانون أكثر ممّا أحترم أمّي.

أنّني الشخص الوحيد الذي بإمكانه كشف كل تفاصيل وحيثيات الجريمة المروّعة، أما تلك المعتوهة، فيُفترض أن تزجّوا بها في السجن، بسبب الافتراءات التي نشرتها. آه، أعرف أن القانون يمنعكم من سجن الصحفيين، بدعوى حرية التعبير، لكن أخبرني بربّك كيف تتصرّفون مع هذه الأشكال؟

فعلاً، المشكلة أنها ليست وحدها من يفعل ذلك، وأنتم لا تستطيعون وضع كل الصحفيين في السجن. لقد هالني ما نشرته إحدى الصحف يوم الاثنين الماضي. هذه الجريدة التي تدّعي أنها دينية، لم تخجل من أن يتصدّر غلافها هذا العنوان الغريب: «مقتل عضو في خلية إرهابية على يد رجال الأمن». كيف توصّلوا إلى هذا الاستنتاج؟ من سيصدّق أن موحوش المسكين عضو في تنظيم إرهابي؟ إنها نكتة القرن يا سيّدي. صحيح أن موحوش المسكين قضى في بيته، لكن رجال الأمن لم يحاصروه على الإطلاق، أقصد أنهم لم يحاصروا البيت قبل وقوع الحادثة، فقد وصلوا بعد خمس وأربعين دقيقة بالضبط من مقتله، ثم فرضوا طوقاً أمنيًّا مشدّدًا على مسرح الجريمة. باستثنائي، لم يكن هناك مخلوق واحد داخل الطوق، لذلك أستطيع أن أجزم، بكلّ ثقة، بأني الشخص الوحيد الذي بإمكانه الكشف عن حيثيات الجريمة.

أعرف أن هذه الصحيفة، التي كانت إلى وقت غير بعيد محسوبة على المعارضة، تتودّد إلى السلطة لتنال رضاها، لذلك تقتنص كل فرصة للحديث عن الإنجازات الأمنية

ضد المتطرّفين، لكن لا يعقل أن تصل بها الأمور إلى هذه الدرجة، وتتّخذ من موحوش كبش فداء. لقد استندت إلى معلومات أفادت بتردّده في الأيّام الأخيرة من حياته على مسجد معروف بارتياد أصحاب الفكر الجهادي عليه، لكن موحوش ليس متطرّفًا، وقد يصلح لأن يكون كل شيء إلاّ إرهابيًّا. إنه يعجز عن قتل صرصور. أعرفه جيّدًا. إنه هادئ جدًّا ومسالم ووديع وحسّاس، لدرجة لا يمكنكم تصوّرها. أما أيّامه الأخيرة، فالحقيقة أنه قضاها متنقّلاً بين غرفته الصغيرة في شارع س والبار الموجود في أحد الأزقّة الضيّقة المتفرّعة عنه، حيث كان يشرب بنهم ويكتب بعنف.

أعرفه جيّدًا، وأنا الشخص الوحيد القادر على سرد تفاصيل الجريمة وأسبابها وحيثياتها بدقّة وأمانة. هههه، أعرف أنّك تفكّر في أن القاتل قد يتمكّن من الهرب في الوقت الذي أروي لكم فيه كل التفاصيل، وأنه سيكمل إجراءات استخراج وثائقه وربّما جواز سفره، مع كل ما يصحب ذلك من تعقيدات بيروقراطية، وسيفرّ إلى دولة أجنبية ما. فكرة طريفة، لكن لا تخش سيّدي، أؤكّد لكم أنه لن يتمكّن من الفرار، وأنا من سيكون عونكم في إلقاء القبض عليه. فأنا متلهّفة إلى تلك اللحظة أكثر من العدالة نفسها. كم أرغب في رؤيته يتعذّب جزاء لجريمته الشنيعة. سيكون ذلك أجمل انتقام لروح موحوش المسكين.

لو توقّفت المسألة عند هذا الحد لهان الأمر، تخيّل أن صحيفة أخرى ادّعت أنه قُتل في حادث سير، بينما قالت أخرى إنه مات بسبب عسر هضمي بعد إفراطه في تناول التين الشوكي، أمّا صحيفة أخرى معارضة فذهبت

بعيدًا، حين زعمت أنه قُتل في مظاهرة احتجاجية على سوء المعيشة.

بالنسبة للمعلومة الأولى، لا شك أنّكم تأكّدتم، من التقارير، من أنه قضى داخل المنزل، فكلّ القرائن تؤكّد ذلك. وبالنسبة للثانية، فها أنا ذا أمامكم، بشحمي ولحمي، أقسم بكل مقدّس بأن القتيل لم يكن يأكل التين الشوكي إطلاقًا، بل كان يمقته.. كان التفّاح والأجاص هما فاكهته المفضلّة، وأحيانًا يأكل العنب والخوخ، وفي الصيف كان مثلنا جميعًا يأكل البطّيخ بنوعيه الأحمر والأصفر، مرّتين في الأسبوع على الأقل. أمّا بالنسبة للأكذوبة الكبرى، أقصد مقتله في مظاهرة احتجاجية، فأؤكّد لكم بأن موحوش لم يسبق له أن شارك في أيّة مظاهرة مهما كان نوعها. أذكر أنه قبل عشر سنوات، حين كانت المظاهرات وإغلاق الطرق بالإطارات والمتاريس موضة رائجة في البلد، فضّل النأي بنفسه عن أعمال الشغب التي كانت تشتعل كل يوم، حتّى إنه نال نصيبًا وافرًا من التهكّم والضرب حين رفض المشاركة في إغلاق الطريق أمام موكب الوالي، احتجاجا على ندرة الماء وانعدام الغاز والهاتف وبعض المنشآت الضرورية. موحوش المسكين كان مسالمًا وينبذ العنف بكلّ أشكاله، وظلّ مؤمنًا إلى آخر لحظة من حياته بأن الطرق السلمية هي الأفضل لتحقيق المطالب الاجتماعية والسياسية. لا تُسئ فهمي أرجوك، لا أقصد أنه ناضل بطرق سلمية، فالمسكين كان هادئًا ووديعًا وجبانًا أيضا، ولم ينخرط في أيّ شكل من أشكال النضال.

هل تتخيّل أنه حين اقتحم الطلبة مطعم الجامعة، قبل تسعة أعوام، حين كان طالبًا، احتجاجًا على رداءة الوجبات

المقدّمة لهم، ظلّ طيلة اليوم جائعًا، في الوقت الذي أخذ فيه زملاؤه كل المئونة المدّخرة في المطعم؟ أخذوا أغراض الطهي أيضًا وباعوها خارج الحرم الجامعي بأثمان بخسة، لكن موحوش رفض حتّى تناول الطعام الذي أحضره زملاؤه إلى الغرفة الجامعية. كان المرحوم مثاليًّا وصاحب مبدأ، ومن المؤسف فعلاً أن يموت بتلك الطريقة الشنيعة.

يُفترض أن يتحرّى الصحفيون الدقّة في المعلومات التي ينشرونها. ليس علينا أن نلوم بقية الناس، إن كان الصحفي أوّل من يخلق الشائعات ويروّجها. بعد كل هذا، ليس عليَّ أن أستغرب من الشائعات التي انتشرت عندنا قبل سبع سنوات، حين زعم عمي مَ أنه رأى تمساحا في الوادي. لا، هذا ليس اسمًا مستعارًا على شاكلة س. س، إنما هو اسمه الحقيقي. مثلك كنت أعتقد أنه مجرّد لقب أو اسم دلع، قبل أن أكتشف الحقيقة. لا أعرف لِمَ اختاروا له هذا الاسم المؤلّف من حرف واحد لا غير، ميم وتُنطق منصوبة، وأعتقد أنهم أضافوا له عبارة عمّي حتى لا يكون قصيرًا بشكل مخلّ. كنت أقول إن عمي مَ زعم أنه رأى تمساحًا بطول مترين يسبح في الوادي. لم يكد ينطق بذلك، حتى انتشر الخبر في أرجاء البلدة وبات حديث الساعة وشاغل الناس، راح الجميع يتحدّثون عن التمساح، عن لونه وشكله وطوله، وعن أسنانه الحادّة وجلده السميك. أصبح التلاميذ يبرّرون غياباتهم عن المدرسة بخوفهم من التمساح. أصدر إمام البلدة فتوى بتحريم الاقتراب من الوادي حتّى لا يلقي الناس بأنفسهم إلى التهلكة، وتقدّم ممثّلون عن لجنة السكّان بعريضة إلى البلدية يطالبون فيها بتدخّل السلطات المعنية، لتخليصهم من الخطر الداهم الذي يحدق بهم.

البعض قال إنه بطول ثلاثة أمتار ويزن طنّين. وزعم أحدهم أنه التهم خروفين من قطيعه دفعة واحدة، فيما نجا هو بجلده بأعجوبة.

أصبح الوادي منطقة مهجورة يا سيّدي. الغريب أن عمّي مَ كان الوحيد الذي يقصده ليرعى أغنامه.. يذهب صباحًا فيعتقد الجميع أنه لن يعود، لكنّه مع غروب الشمس يُشاهد وهو يتذيّل قطيعه عائدًا إلى بيته بشكل طبيعي. كانوا يجتمعون حوله كل مساء ليروي لهم ما شاهده في ذلك اليوم. أخبرهم أنه رأى التمساح ينساب داخل الوادي مع ثلاثة من صغاره.

كان التمساح يكبر ويتكاثر، والجميع يقول إنه رآه، دون أن يعرف أحد ما إذا كان ذلك حقيقيًّا أم مجرّد أسطورة. أمّا عمّي مَ، فكان يخيّب توقعاتهم كل مرّة، حين يطلع من جوف الوادي سليمًا معافى، حتى أغنامه لم تنقص، بل كانت تتكاثر وتزداد سمنة. وقد ظلّ يفعل ذلك حتى عُثر عليه ميتًا في المكان عينه. وأرجوك سيّدي المحقّق، لا تسألني عن القصة الحقيقية لمقتل عمّي مَ.

السيناريو الثاني

(بغرض التمويه دائما، غيّبت موحوش ثانية. ككل مرّة، لم أستطع تغييبه بشكل شبه كلي. استحضرت سمّونة وتركتها تتكلّم).

ثلاثة حريّ بالمرء أن يخشاها: الله والوالدين والكهرباء. هذا ليس من عندي. إنه كلامك الذي تردّده دائما.

في طفولتك، أُصبت بشلل في ذراعك اليسرى بسبب

صعقة كهربائية. وقبل أيام، فقدت موحوش، أخاك الأصغر، بصعقة كهربائية.

«لمن تتركني يا موحوش؟».

تشبّثت أمك، أو ربما زوجة أبيك، بيديه وهي تبكي بحرقة، وتترجّاه بعدم الرحيل.

لكنه رحل. مات المسكين في اليوم نفسه الذي انتقل فيه إلى بيت آخر.

كنتَ ستنهال بالصفع والركل على ذلك الولد الشقي الذي أصبح رجلا على حين غرّة، وتأمره بالبقاء. أن تعاتب أمّك، وتقول لها إنها لن تبقى وحيدة وأنت موجود معها، لكنّك لم تفعل.

وقفت في نهاية الرواق تتفرّج كأيّ مخبول. لم تكن موجودًا حتى. تتفهّم أمّك التي يكاد يقتلها النحيب، فرحيله يعني فعلاً بقاءها وحيدة، مع ابن تنتابه نوبات جنون فجائية، ويغيب عن الوعي ساعات، وأحيانًا أيّامًا بأكملها. غيابك أكبر من حضورك.

نظرت إليّ، كما لو كنت تطلب مني التدخّل لفعل شيء، لكنني اكتفيت بأن ذرفت دمعة يتيمة وغطست رأسي بين ذراعيّ، قبل أن يفاجئني: «اسبقيني إلى السيّارة يا بقرة».

لم أرد الرحيل.. قرأتَ ذلك في وجهي، وأنت متأكّد من أنّني كنت لأعترض، لو لم أخش من صفعة أخرى، كالتي مازالت مرتسمة على خدّي.

خرجت وأنا ألتفت ورائي مع كل خطوة. سحب موحوش يديه ببرود من قبضة أمّكما، أو زوجة أبيكما، ولحق بي.

كان دكتاتورًا صغيرًا ببدلة وربطة عنق، يضعُ مثبّتًا على شعره ويغطّي عينيه بنظّارات شمسية. أنيق للغاية ولا يبدو شرّيرًا على الإطلاق. لم يكن كذلك يومًا. ما زلت تراه الطفل الذي كنت تحمله على كتفيك، لكن المشهد الذي صنعه اليوم جعلك ترغب في خنقه حتى الموت.

كانت الرغبة مشتركة مع أمّك التي دعت عليه بكل أنواع المصائب، وهو يدلف إلى الخارج؟

الآن، تشعر بالأسى عليه. لِمَ لم تعانقه وهو يرحل؟ لماذا لم تطلب منه أن يزوركم كثيرًا؟

لم يكن الأمر ليختلف.. لم يطل غيابه. عاد بأسرع ممّا انتظرنا جميعًا.

عاد في اليوم نفسه، وبات ليلته تلك عندكم. كنتَ في الشارع حين وصلك عويل مبروكة، وهي تصرخ بالكلمات نفسها التي ردّدتها في الصباح: «لمن تتركني يا موحوش؟».

الجثّة داخل الثلاّجة، وأنت ممدّد في الغرفة المجاورة، غائبًا عن وعيك، بين وجوه مألوفة وعويل.

وهذا الوجه الذي رأيتِه في الحافلة، وأنت هاربة إلى س، مألوف أيضا: «يا لطيف. كم يشبه موحوش!».

أربكك سؤاله: «هل تريدين خدمة؟».

أزعجتِه، ولا شك، بنظراتك الوقحة التي لم تُشحِها عنه، إلا لتنظري إلى ساعة هاتفك. ادّعيت أنك تريدين منه معرفة الوقت بالتحديد، لتضبطي ساعتك. كنت بحاجة إلى مخرج، حتى بحيلة قديمة وسخيفة.

أجاب، على مضض، بأن الساعة تشير إلى تمام السادسة.

تكرهين هذا الرقم.

أمّا أنا فأحبّه.

الوقت يمرّ. الحافلة تزحف وسط الزحام كسلحفاة مسنّة. الليل يقترب وهاتف س لا يردّ. تعاودين الاتّصال دون جدوى، وحين تجدين هاتفها مغلقًا، توقنين أنّك ستقضين الليلة في الشارع.

لا بأس، لا شيء يأتي دون ثمن. كان عليك أن ترحلي. أرادوا إجبارك على الزواج بي. لكنّك أشفقت على كلينا، وقلت: «لا»، لأوّل مرّة في حياتك.

أرجو ألاّ تكون الأخيرة.

تنظرين إليه مجدّدًا بشكل لا إرادي. يتأفّف انزعاجًا. لا بأس، ستقاومين النظر إليه، رغم أنه يشبهه إلى درجة لا تُصدّق.

بتٍّ شبه متأكّدة من أنه هو.

بتٍّ شبه متأكّدة من أنك ستقضين ليلتك في الشارع.

توقّفت الحافلة ومضى الركّاب إلى سبلهم، بينما تسمّرت في مكانك دون وجهة. فوجئت بموحوش يقترب منك، ويعرض عليك المساعدة.

ليس أنبل من مساعدة امرأة تعيسة. لنختصر الأحداث. بإمكان المخرج أن يشتغل على التفاصيل لاحقًا.

ـ لم أتوقّع أن أجدك..

في نسخته السابقة، لم يقترب منك.

ارتدى ملابسه وانسلّ خارجًا، وهو يحذّرك من الخروج أو الاقتراب من النافذة: «لا أريد أن تثيري انتباه أحد».

قال لك أمس، وهو يرافقك إلى هذا المكان: «لا يمكن إلاّ أن تكوني عاهرة أو مجنونة». طمأنتِه بأنّك مجنونة فقط. اليوم صرتِهما معًا.

سمّونة البهلولة!

هكذا كانوا ينادونك.

تتملّكك رغبة في إحراق هذه الصورة البائسة: فتاة بدينة بملابس مرقّعة وشعر أشعث أغبر ونظّارات رؤية. صورة يتيمة من الزمن التعيس.

تلوذين إلى صورتك الثانية: امرأة سمينة بفستان أبيض وضحكة بلهاء، تمسك رجلاً يبدو في أشدّ ما يكون عليه التذمّر. بالطبع ليس سعيدًا. لديه أسبابه، مثلما لديك أسبابك الكفيلة بجعلك أتعس امرأة على الأرض.

لم يكن زواجكما منطقيًّا.. لست سوى امرأة بدينة طُردت من المدرسة باكرًا، وظلّت تتبوّل في فراشها بعد أن تجاوزت اثنتي عشر عاما من عمرها. الرائحة الكريهة

ملتصقة بك. تشمّينها في الصورة.. واسم سمّونة البهلولة ملتصق بك أيضًا، كظل.

أما موحوش، فكان وسيمًا ومتعلّمًا، لعلّ كلّ نساء الكرة الأرضية حلمن به زوجًا، ولا شكّ أنه عاشر الكثير منهن قبل أن ينتهي به حظّه العاثر إلى امرأة لم يحبّها أبدًا، ولم يقترب منها يومًا، إلا ليطبع صفعات على خدّيها.

لم تطلبي منه أن يمنحنك الحب أو السعادة، لأنك لم تكوني قادرة على منحهما له. كنت تشفقين عليه، فكلاكما ضحية.. تزوّجك رغمًا عنه، ليدفع ثمن خطأ ارتكبه غيره، ولم يستشرك أحد قبل أن تُساقي إليه مثل نعجة. عشت بضعة أشهر تحت سقفه تنتظرين رصاصة الرحمة التي وعدك بها.. لكن السلك الكهربائي، الذي صعقه في الحمّام، سبقه في حسم طريقة الفراق.

هذه صورة يتيمة لزواجكما. مزّق كل الصور في إحدى نوبات غضبه. ها أنت تمزّقين آخر صورتين، وتفتّشين في حقيبتك علّك تجدين صورًا أخرى، كي تُلحقي بها المصير نفسه، غير أنّك لم تجدي غير هذه: صورة لأبيك بالأبيض والأسود. هي صورته الوحيدة.

مبتسم، شامخ، في قمّة عنفوانه،

لكن مخيّلتك تستحضر صورة أخرى.

كان صباحًا شتويًّا مثلجًا. وكنّا ذاهبين إلى مدرسة الشهيد س، حين رأينا أربعة رؤوس مفصولة عن أجسادها. عدنا إلى بيوتنا من شدّة الرعب. تساءل المعلّمون عن سبب

تغيّبنا عن الدراسة. فأخبرهم بالأمر زملاؤنا الذين كانوا أكثر حظًّا، ولم يروا المشهد.

سأختصر أكثر: مرّت السنوات، كبرت، لم أعد سمينة كما كنت. عاد مقران من الجبل، وقرّر تسليم نفسه، بعد صدور قانون الوئام المدني الذي عفا عن المسلّحين.

كلّهم قالوا إنهم أبرياء من الدماء التي سالت طيلة تلك السنوات، وزعموا أن عملهم كان يقتصر على الأمور البسيطة، كإعداد الطعام وغسل الثياب. أَقسم كثير منهم بأنهم كانوا، فقط، يخبزون الكسرة لزملائهم.

سألهم ضابط ذات مرّة وقد جُنّ جنونه: «بربّكم، هل أنتم إرهابيون أم خبّازون؟».

مقران، أيضا، أقسم أنه كان يخبز الكسرة فقط، وأن يديه نقيّتان. لكنني سمعته يعترف لمبروكة باكيًا: «ذبحت أباها بيديَّ هاتين».

أجبر موحوش على الزواج بي، ليريح ضميره. وكاد يفعلها معك، لكنني حينها كنت سأصرخ: «لا».

لم أصرخ. ها أنا في هذه الحجرة في مكان ما من العالم، لا أستطيع أن أطلّ من النافذة، أو حتّى أن أفتحها لأتنفّس.

السيناريو الثالث

(لسبب ما، أبدى موحوش تعاطفه مع الشخصية الرئيسية في السيناريو الأوّل، فطلب مني تعديله، بحيث يكون الحدث الذي تتعرّض له أقل مأساوية. فكّرت في عضة كلب. من

المؤكّد أنها أفضل من الموت، لكن مهلاً، أنا روائي وبإمكاني جعل الموت يبدو هيّنًا أمام عضة الكلب).

المكان: الشارع س

الزمان: كالعادة، لا يهم

ولسبب ما، أنزل إلى الشارع س وأذرعه جيئة وذهابًا مثل مخبول ضلّت به السبل. من المؤكّد أن لديَّ موعدًا في تمام الساعة التاسعة والنصف مع أحدهم في مكان ما. أتّجه يمينًا ثم أعود أدراجي.. أذهب يسارًا ثم لا ألبث أن أرجع إلى النقطة صفر، حيث قذف بي سائق السيّارة العجوز قبل نحو ساعة من الآن. ليتني أتذكّر، فقط، المكان الذي كنت سأذهب إليه، أو الشخص الذي اتفقت على لقائه. لا تسعفني الذاكرة في استرجاع أيٍّ من ذلك، فأبقى على حالي. أتذكّر فجأة أن لديّ موعدًا مع الطبيب على الساعة التاسعة والنصف. دون مزيد من التفاصيل.

موعد مع الطبيب؟

ولكن لِمَ؟

لا أعاني من أيِّ مرض، بل إن بإمكاني القفز مثل حصان. أحيانًا نلتزم بمواعيد عبثية.

لم يبق سوى نصف ساعة فقط، وأنا لا أعرف مقرّ هذا الطبيب، ولست متأكّدًا حتّى من إمكانية الوصول إليه في الوقت المحدّد، مع كل هذه الزحمة.

زحمة بشر.. زحمة كلاب.

تتسارع الأحداث.. يقترب مني كلب ضخم، يغرس أنيابه الضخمة في مؤخّرتي السمينة.. أصرخ، أسقط أرضًا والدم ينزف على فخذيّ.. يجتمع كلّ من في الشارع حولي. أترجّاهم أن يفعلوا شيئا، لكنهم يكتفون بالصراخ بصوت واحد: «اذهب إلى الطبيب.. اذهب إلى الطبيب».

أعرف ذلك، لكن كيف؟

ـ اذهب إلى الطبيب.. اذهب إلى الطبيب.

أتّصل بخالتي مبروكة: عضّني كلب،

وفي رواية أخرى أسد.

تضحك، تقول لي: «مازالتَ بليدا».

أتّصل بسمّونة، تقهقه ثم تغلق سمّاعة الهاتف.

أتّصل بموحوش، فلا يردّ.

يمرّ سائق التاكسي العجوز مجدّدًا.. يفتح باب سيارته المهترئة: «أنا في الخدمة».

في تمام التاسعة والنصف، أجدني عند الطبيب.

انتهى.

لا يوجد سيناريو رابع، لكن ثمّة فصل رابع، لمن يهمُّه الأمر.

الفصل الرابع

يجلس أمامك، الآن، شخص مختلف عن الذي رأيته في المرّة الأولى، شخص غير اعتيادي، بثقب على جبينه، وذراعين طويلتين، يمكنهما أن تلمسا السقف إذا رفعهما، أو أن تأتياك، إذا مدّهما، بالملف الذي تريد من مكتب السكرتيرة، هناك في نهاية الرواق. هذه واحدة من الأعراض الجانبية للكابوس الرابع.

في هذه الحالة، أجدني ككل مرّة، بين مبروكة وسمّونة، وهما تتجاذبأنّني بقوة. تمسك الأولى بيدي اليمنى، والثانية باليسرى، تجذبأنّني بكل ما أوتيتا من قوة، يمينًا ويسارًا. أحسّ بأن ذراعيَّ ستنفصلان عن جسدي في أيّة لحظة، ثم تأخذان في التمدّد. تذهب مبروكة في جهة، وسمّونة في جهة أخرى ومعهما يداي، حتى تختفيا. لا أعرف إلى أيّ شارعين بالتحديد وصلت يداي، لكنهما في لحظة ما تعودان إليّ. لا أكاد أستعيد أنفاسي، حتى ينبثق جدّي من مكان ما، ثم يشرع في ضربي على جبيني بعصاه الطويلة والدقيقة. يضربني وهو يردّد: «جحش.. جحش.. جحش.. ».

لم أعد أتحمّل.

أرجو أن تقبل استقالتي. كل ما أريده منك، سيّدي، هو أن تُمضي على هذه الورقة وتدعني أمضي إلى حال سبيلي. لن أعود إلى الوظيفة مهما حاولت معي، لذا، تكرّم عليّ رجاء بتوقيعك، فأنا لا أريد أن يُعتبر الأمر تخلّيًا عن الوظيفة. لنترك الأمور تسير في إطارها القانوني، لأنّكم إذا ما اعتبرتم توقّفي عن العمل تهرّبا عن أداء واجبي المهني والوطني في هذه الظروف العصيبة التي يمرّ بها الوطن، وفي هذا المنعطف الحاسم من تاريخ الأمة، فإنّكم على الأرجح لن تمنحوني فرصة عمل أخرى، كما لن أجدها في مكان آخر.

نسيت أن أقول إني في هذه الحالة، أعمل معلم ابتدائية في منطقة نائية.

إنها الاستقالة الثالثة التي أقدّمها في غضون ستة أشهر، وأؤكّد لكم أنها ستكون الأخيرة، لأنّني لن أعود إلى العمل حتى وإن رفضتموها.. في المرّة الأولى عدت مكرهًا كي أستكمل فترة الثلاثة أشهر وأتمكّن من تقاضي راتبي. وفي الثانية وعدتموني بالصبر والتحمّل قليلا، ريثما تعود السيّدة س من عطلة الأمومة، لكن العطلة طالت، لدرجة أني أصبحت أشكّ في عودتها مجدّدًا.

بالمناسبة، هل لديكم أخبار عن السيّدة س؟

أعرف أن الأمر لا يعنيني البتّة، لكنني أرغب في الاطمئنان عليها ليس أكثر. لعلّها أصيبت بمكروه؟

آه، الحمد لله. تحصّلت على توأم إذن! وهل هذا يعني أنها ستستفيد من عطلة أمومة مضاعفة؟

بالتأكيد لا يعنيني الأمر. كل ما يعنيني هو أن أرى توقيعك الجميل يزيّن هذه الورقة.

من يصدّق؟

قبل ستّة أشهر بالضبط، كنت أجلس في هذا المكان، أستجديك لتمنحني منصب عمل. تردّدتَ في البداية. لا شكّ أنك قلت في نفسك إن هذا الصعلوك لا يليق أن يكون معلّما، لأنه سيكون مثالاً سيّئًا للتلاميذ، لكنّك طلبت مني العودة مجدّدًا، ثم بقيت تفعل ذلك مرّات عدة، وفي المرّة الأخيرة تناولت ملفًا من الدرج وبشّرتني بخبر سعيد.

ثمّة منصب شاغر في مدرسة الشهيد س، صاحبته في عطلة أمومة. يمكنك أن تحصل على الوظيفة، لكن المكان بعيد نوعًا ما، والنقل غير متوفّر.

قلت، وأنا أطير فرحًا حتّى كدت أقفز من مكاني لأقبّل صلعتك: «ليست مشكلة. المهمّ أنّني وجدت عملا أخيرًا».

الحالة الأولى

طُردت من الإكمالية، وسأصبح مدرّسًا.

الحالة الثانية

أحمل شهادة جامعية وقّعها عميد الكلية شخصيًّا، وعميد الجامعة شخصيًّا، إلا أنك بدوت مشكّكًا فيهما معًا، وفي كل الأساتذة الذين درّسوني طيلة أربع سنوات، بل في كل المعلّمين الذين تعاقبوا على تعليمي منذ ستة عشر عامًا، وفيَّ أيضًا. قلت إنك ستخضعني لاختبار كتابي وآخر

شفهي. لم أستسغ الفكرة، خاصّة أنّني علمت أنّك من سيشرف على الاختبار، ذلك أنّني لست متأكّدًا من أنك تحمل شهادة جامعية أصلاً، لكنني قلت في نفسي: «بقيت خطوة واحدة، وعليّ ألاّ أكون عنيدًا». قبلت مكرهًا. أجريت الاختبار الكتابي ثم الشفهي، ولا يمكن أن أصف لك فرحتي حين أخبرتني بأني سأباشر عملي ابتداءً من السبت المقبل.

«عليك بتغيير هيئتك هذه، لأنها لا تليق بالوظيفة والمسؤولية التي ستحملها على عاتقك. على المعلّم أن يكون قدوة حسنة لتلاميذه».

كان ذلك شرطك الوحيد.

أنا على أتمّ الاستعداد لإعطاء القدوة الحسنة للتلاميذ. سأغيّر هيئتي بشكل جذري. بالتأكيد لن أضع، مجدّدًا، مثبّتًا على شعري، بل سأتركه أشعث على الدوام. سأطيل شاربيَّ، بحيث أبدو أكبر سنًّا. كما سأرتدي بذلة كلاسيكية تضفي عليَّ بعضًا من الوقار. سيكون الأمر صعبًا، لأنّني لا أملك إلا قليلاً من المال، كما أني لن أقبض أجري إلا بعد أشهر. لست في النهاية سوى معلّم مستخلف، لكنني سأفعل كل ما بوسعي لأكون عند حسن ظنّك.

لطالما اعتقدت جازمًا أن التعليم لن يكون مهنتي المستقبلية، خاصّة في الابتدائية. مقتنع تمامًا بأنّني لا أتقن فن التعامل مع الأطفال، فضلاً عن كوني أغضب بسرعة، ولا أريد التورّط في قتل تلميذ طائش أو بليد، وقضاء ما تبقّى من عمري في السجن.

يحدث أن لا يحدث

في السجن التقيته، مقران. كان ممدّدًا في ركن من الزنزانة وسط حشد بشري، والجزء العلوي من وجهه مختف تحت قبّعته، لكنني عرفته من معطفه الأصفر.

ـ هل أتيت لزيارتي؟

ـ الحقيقة أنهم أرسلوني لقضاء محكوميّتي هنا.

ـ أحضرت الدخان معك؟

ـ أحضرت معي كشكًا كاملاً.

ـ كشك موحوش؟

ـ استوليت على كل ما فيه. ما أحمله من علب في جيبي يكفي إلى الأبد.

ـ حكموا عليك بالمؤبّد؟ ماذا فعلت؟

ـ قتلت تلميذًا بليدًا. بليد وطائش في آن.

ـ يؤسفني أني لن أؤنسك طويلاً. سأخرج قريبًا. لم يبق من محكوميتي سوى بضعة أيام. لكنّني أعدك، سنقضي معًا أوقاتًا رائعة في التسكّع وجمع أعقاب السجائر من الشوارع.

ـ رائع، لكن أخبرني أيّهم أنت بالتحديد؟ سائق التاكسي العجوز أم مدير المدرسة أم جاري في الطابق السادس؟

رائع، يحدث أن لا يحدث.

الحمقى وحدهم لا يغيّرون قناعاتهم، كما يقال. غيّرت رأيي بعد عامين من التسكّع. عدت إلى أدراجي القديمة واستخرجت شهادتي التي حسبت أني لن أحتاجها يومًا، ووجدتني عندك أطلب عملاً، حتى وإن كان في نهاية الدرب التبّانة.

تحمّستُ كثيرًا للعمل، وأخذ الموضوع كل تفكيري وبات شغلي الشاغل في انتظار اليوم الموعود، لدرجة أنه في ليلة السبت حدث معي شيء غريب.

شيء غريب سيّدي المفتّش.

اتّجهت في صباح لم تشرق شمسه بعد إلى المدرسة، ببذلة كلاسيكية وشعر أشعث وشاربين، وفيما أنا أسير في مكان مقفر، إذ بشيخ طاعن في السن، يرتدي البياض، يقترب مني ويقول: «أهلاً بك في عالمي».

ابتعدت عنه قليلاً. لا أخفي عليك بأن منظره أرعبني. فقدت ما يتطلبه الموقف من الحد الأدنى من ضبط للنفس، وصرخت: «رجاءً، من أنت؟».

ابتسم بسخرية، وقال وهو يلتفّ حول نفسه بخفّة شاب: «أنا الشهيد س بشحمه ولحمه. لا شك أنك تعرفني. استشهدت عند ذلك الجبل، ودُفنت عند تلك التلّة، بين شجرات التين الشوكي».

ـ سأكون صريحًا معك، لم أكن أسمع بك من قبل، ولكني أعتقد أن المدرسة التي سأباشر فيها عملي اليوم تحمل اسمك. إن كنتَ الشخص المقصود طبعًا، وليس شخصًا آخر.

ـ وهل عنك شك؟ لا يوجد س آخر في هذه القرية، أو في العالم كلّه. على كل، هذا تحديدًا ما جئتك من أجله.

ـ ؟

ـ لديَّ وصية لك في يومك الأوّل بالمدرسة.

ـ لا تقُل لي إن مفتّش التربية أرسلك إليّ. يبدو أنه سيتبعني إلى هنا أيضًا. ألا تكفي كل النصائح والتعليمات التي قدّمها لي؟ ثم انظر إليَّ جيّدًا، ألا تعتقد أن هيئتي هذه تليق تماما بمعلّم ابتدائي؟

ـلا تكن ثراثرا واسمعني جيّدًا، لأنّني سأغادر قبل شروق الشمس. وصيّتي الوحيدة لك هي أن تعتني بأبنائي جيّدًا وتعتبرهم مثل أبنائك تمامًا. فهمتني، أليس كذلك؟

ـآه، لِمَ لم تفصح منذ البداية؟ أبناؤك سيدرسون عندي إذن؟ فقط أعطني أسماءهم وأعدك بأنّني سأعاملهم معاملة استثنائية، وسيحضون بامتيازات مقارنة مع بقية زملائهم. سيكون بإمكانهم مثلا المجيء إلى القسم ومغادرته في الوقت الذي يريدون، وسأغدق عليهم بأعلى العلامات. أبناء الشهيد س يجب أن يكونوا المتفوّقين دائما.

استشاط غضبًا. ضرب الأرض بعصاه، وقال وهو يوجّهها نحوي بيده المرتعشة: «تبًّا لك! ليس هذا ما أريده منك على الإطلاق. كل التلاميذ الذين ستدرّسهم أبنائي، كل سكّان هذه القرية من صلبي. لا أريد أن يُفضّل بعضهم على بعض. ما أريده منك هو أن تقوم بواجبك على أكمل وجه، وأن تنفّذ رغبتي ورغبة الشهداء جميعًا. دفعنا حياتنا

من أجل أن يحظى أبناؤنا وأحفادنا بحياة أفضل، وأن يكونوا متعلّمين. هل فهمتني يا جحش؟».

أمسكني من رقبتي وراح يردّد العبارة الأخيرة وهو يصرخ. كان سيقتلني. أفقت مذعورًا وقلت: «أعدك بأنّني سأقوم بواجبي على أكمل وجه».

من حسن الحظ أنّني أفقت.

مفاجأة أولى

بعد أن اقترب مني العجوز، وأمسكني من رقبتي بشدّة، وراح يصرخ مردّدًا: «لقد دفعنا حياتنا من أجل أن يحظى أبناؤنا وأحفادنا بحياة أفضل، وأن يكونوا متعلّمين. هل فهمت يا جحش؟»، وقبل أن أفيق مذعورًا وأقول: «أعدك بأنّني سأقوم بواجبي على أكمل وجه»، اكتشفت أنه جدّي.

نعم. إنه هو، بشحمه ولحمه وعينيه الجاحظتين ولحيته الكثّة وعصاه الطويلة الدقيقة. لكن من يصدّق أن الشهيد س هو جدّي؟ أقصد من يصدّق أن جدّي هو الشهيد س؟

إنها نكتة الموسم.

دعنا من هذا. لا شك أنك ستقول: «كيف تجرؤ على مجرّد التفكير في الاستقالة، وأنت تحمل وصية من الشهيد س شخصيًّا؟»، والحقيقة أن سر تحملي البقاء في ذلك المكان ستّة أشهر كاملة يكمن في الوصية أصلاً.

سأصارحك القول.. لم أعد أولي أمر الوصية أيّ اهتمام. حين وصلتُ إلى القرية التي بدت لي أنها تنتمي إلى عصور

غابرة، ودخلت المدرسة ورأيت التلاميذ المساكين بأسمالهم البالية، واكتشفت أن معظمهم لا يعرف القراءة والكتابة رغم أنهم في الصف الرابع، تساءلت: لماذا وقع اختيار العجوز عليَّ تحديدًا ليترك عندي وصيته؟ ما الذي يمكنني فعله لهذه القرية المنكوبة؟ بالتأكيد ليس باستطاعتي تغيير العالم، وقد كان على س أن يظهر في أحلام مفتّش التربية أو أيّ مسؤول آخر ويقدّم له وصيّته.

كان عليّ أن أنظر إلى الأمر على أنه محض كابوس مزعج، لكنه بالتأكيد لم يكن أكثر إزعاجًا من الكوابيس التي عشتها في الابتدائية. أعرف أنك لم تزرها ولم تفكّر في ذلك حتى، فهي تبعد عن هذا المكان بسبعة وستين كيلومترًا بالضبط، كما أن وقتك الثمين الذي تقضيه داخل مكتبك لا يسمح لك بذلك. أمّا إن زرتها، فستكتشف أنها مجرّد ثلاث غرف عليها ثلاث غرف أخرى غير مكتملة البناء، وهو ما نسمّيه هناك أقسامًا. تتضمّن تلك المساحة فناءً صغيرًا وغرفة جديدة تُستخدم كمطعم ومرحاض، يحيط بكل ذلك سياج ليشكّل ما نطلق عليه اسم مدرسة. يمكنك أن تلاحظ أنها لا تتوفّر على ماء ولا كهرباء، وأن المدافئ لا تشتعل بسبب غياب المازوت، وأن معظم النوافذ مهشّمة.

المشكلة لا تكمن هنا بالتأكيد. أقصد أنها لا تكمن في البناية، بل في الأشخاص الموجودين داخل البداية. يمكنني أن أقصّ عليك حكايات مروّعة، وعليك ألاّ تستغرب على الإطلاق.

في البداية استغربت. تملّكتني الدهشة، خاصّة حين وجدت أن تلاميذ الفصل الرابع لا يتقنون كتابة أسمائهم

بشكل صحيح. تساءلت إن كانوا قد تلقّوا فعلاً دروسًا في السنوات الثلاث الماضية وهل كانوا يأتون إلى المدرسة أصلاً، ثم وجدت الإجابة عند مقران.

لا شك أنك تعرفه جيّدًا، فهو يزورك كثيرًا في مكتبك، ويدّعي أنكما صديقان. لا أعرف إن كنتما حقًّا كذلك، لأني أشك في أن يكون لذلك الرجل القصير المتشنّج أصدقاء، لكني كدت أصدّقه حين قال لي بعد أن أبديت له امتعاضي من تصرّفاته: «لم أُعيّن مديرًا لوجه الله».

من الواضح أنه لا يولي تلاميذ الصف الأوّل، الذين يشرف على تدريسهم، أدنى أهمية، وإلاّ ما كان ليحتجزهم طيلة يوم كامل في تلك الحجرة الضيّقة وينصرف ليقضي شؤونه في المدينة، أو ليلعب الدومينو في المقهى.

مفاجأة ثانية

بالصدفة، وأنا أمرّ على الصفّ الأوّل، حيث يحتجز مقران تلاميذه، رأيت موحوش جالسًا في الصف الأوّل كتلميذ نجيب. كان يرتدي معطفًا سميكًا ويعتمر قبّعة صوفية. وأمامه كنتُ أجلس. تعاطفت معنا. كنّا طفلين مسكينين وسط مجموعة من المساكين الآخرين. بحثت عن سمّونة، لكنني لم أعثر لها على أثر. من الواضح أنّها في قسم آخر.

في الأيام الأولى، كنّا نكتفي بالقفز في أرجاء القسم وتحويله إلى مكان يعجُّ بالفوضى، بعضنا يقفز من الكراسي أو الطاولات، والبعض الآخر يخربش على السبورة، ويختفي

آخرون داخل الخزانة التي تكفي لينحشر فيها ستّة أو سبعة منّا. ولم يكن ذلك يثير غضب مقران، الذي يركن سيّارته القديمة أمام باب المدرسة على الساعة الثالثة من مساء كل يوم، بل كان يسارع إلى تنظيف المكان وإعادة ترتيبه، بمجرّد أن يطلق سراحنا.

وحين انقضى الفصل الأوّل من الموسم الدراسي، لم نكن قد تعلّمنا حرفًا واحدًا، ولكنّنا بالمقابل تعلّمنا كثيرًا من الفنون والمهارات التي يفتقدها أقراننا في أماكن أخرى، كالقفز والجري وصعود الخزانة دون مساعدة أحد، وتخريب القسم وبعثرة جميع أغراضه، ثم إعادة كل شيء إلى مكانه، بمجرّد سماع صوت هدير السيّارة، على الساعة الثالثة. أما أهمّ ما تعلّمناه، فهو كيفية الخروج من القسم، ثمّ العودة إليه قبل عودة المعلّم من المدينة. أحدثنا ثقبًا في إحدى النوافذ، ورحنا ننسلّ منه واحدًا تلو الآخر.

في تلك المرحلة، كان أبي قد اختفى من البيت. أما جدّي فكان مشغولاً بصرصور، بحيث لم يبلغه شيء ممّا كان يحدث في المدرسة.

الله أعلم إلى أين كانوا يذهبون، لكنني أعرف أنهم كانوا يعودون قبل الثالثة.

بالنسبة لمقران، لعبة الدومينو أهمّ من التلاميذ ومن مستقبلهم. قلت في نفسي: «من يحسب نفسه؟ حتى إن كان مفتّش التربية صديقه، لا يمكن أبدًا القبول بتصرفاته. مفتّش التربية نفسه لن يقبل بها. لا يمكن أن يستمرّ في إنتاج أجيال من الأميّين والجهلة». كان عليَّ، إذن، أن أجمع

بقيّة المعلّمين لنوقّع تقريرًا أسود ضدّه ونرفعه إليك، وحينها سأستمتع وأنا أراه يعضّ أصابعه ندمًا.

صدّقت أن بوسعي تغيير العالم.

فكّرت في أن أبدأ بالسيدة مبروكة، معلّمة القسم الخامس. قد يعتقد المرء أنها شرّيرة للوهلة الأولى، وهو يرى وجهها العابس وعينيها الضيّقتين، لكن لا يلبث أن يغيّر رأيه بمجرّد أن يحدّثها، فتنفرج أساريرها وينفتح ثغرها على ابتسامة عذبة. إنها أمّ، ولا شكّ أنها تدرك جيّدًا معنى أن تترك أبناءك بين يدَي معلّم من صنف مقران.

وأنا أقترب من الصفّ السادس، صُعقت ممّا رأته عيناي عبر النافذة. كانت ثمّة طفلة سمينة تمتطي طفلاً نحيفًا يحبو على ركبتيه، وهو بالكاد يستطيع الحراك. اندفعت إلى الحجرة وأنا أصرخ: «بالله عليك أخبريني ما هذا؟».

وضعت الطبشور الذي كان بين يديها جانبًا. حملت قطعة خشبية وارتمت على الكرسي وخاطبت ابنتها بدم بارد: «أخبريه ما هذا يا صغيرتي؟».

ـ إنه جحش.

فهمتُ أنها تجبر التلاميذ المعاقَبين على حمل ابنتها التي تزن أربعين كيلوغراما على الأقلّ، وأخذها في جولة بين الطاولات. أيّة تقنية مبتكرة هذه؟ حاولت أن أقنعها ألاّ ذنب لهؤلاء المساكين، لكنّها لم تترك لي مجالاً للحديث، وطلبت مني الخروج بإشارة بأصبعها إلى الباب.

انسحبت وقد قرّرت أن أرفع شكوى ضدّها هي الأخرى، وقبل أن أخرج سألت: «هل تحمل ابنتك السمينة زملاءها حين تخطئ؟».

أطلقت قهقهة مدوّية وهي تقول: «لا تحمل همًّا، سمّونة لم تتعلّم عند مقران. علّمتها أمّها في البيت».

فكّرت في الاستنجاد بمعلّم السنة السادسة، ثم تذكّرت أن الصفّ السادس غير موجود أصلاً. وصل إلى هذه المرحلة تلميذان فقط، لم يكن بالإمكان تخصيص مدرّس لهما، فنُقلا إلى مدرسة في قرية مجاورة.

لم يبق أمامي إلا إطلاع أولياء التلاميذ على الأمر، غير أني اكتشفت أن المهمّة ستكون بالغة الصعوبة، فالجميع في القرية يحترم مدير المدرسة، وإلا لِمَ ينادونه سي مقران؟ تأكّدت من ذلك بنفسي حين جمعتهم.

قال أحدهم: «لم أعلم أنهم أصبحوا يرسلون أطفالاً ليدرّسوا أطفالنا. هزُلت».

وعلّق آخر بحسرة: «وهل تعتقد أنهم سيجدون معلّمين مثل سي مقران؟ أمثاله قليلون، بل لم يعودوا موجودين أصلاً».

باختصار، حوّلوني إلى مسخرة. وفي تلك اللحظة، اتّخذت قراري الأخير. كتبتُ استقالتي هذه، وعدت إلى البيت بعد ثلاثة أشهر من الغياب. أقسمت ألاّ أعود إلى قرية الشهيد س ما حييت.

وفي تلك الليلة، شاهدت كابوسًا مرعبًا: رأيت جدّي يعدو خلفي بعصًا غليظة وهو يتوعّدني بضربة غير تقليدية على رأسي: «إلى أين تفر؟ تذكّر وعدك الذي قطعته في أول أيّامك بالمدرسة. عُد أيها الجبان، لا يمكنك أن تستقيل أبدًا. جحش.. جحش.. جحش».

أمّا أنا فكمن يركض في الرمل أو في الوحل. بالكاد أستطيع حمل قدمي. التفتُّ خلفي، فرأيته يعدو كفهد، وفجأة انقض عليّ وتشبّث برقبتي: «جحش.. جحش.. جحش».

أفقت مذعورًا.

كان كابوسًا مرعبا.

مفاجأة ثالثة

لم ينته الكابوس. جدّي مازال متشبّثًا برقبتي وهو يقول: «لا يمكنك أن تستقيل أبدًا. استقالتك مرفوضة. هل فهمت؟ تذكّر الوصية».

من يملك صلاحية قبول الاستقالات أو رفضها في تلك المدرسة اللعينة، جدّي أم أنت؟

لم يتشبّث برقبتي فحسب، بل راح يضربني بعصاه الطويلة الدقيقة على جبيني محدثًا كلّ هذه الثقوب: «جحش.. جحش.. جحش».

كان عليَّ أن أدافع عن نفسي. نهضت مستجمعًا قواي. أمسكته من رقبته ورفعته حتى كاد يلامس السقف، وألقيت

بـه أرضـا، ثم مضيـتُ إليـك دون أن أعـرف إن كان لا يـزال حيًّا، أم أنه مـات، أقصـد إن كان قـد استشـهد مرّة ثانيـة.

كل مـا أريـده منـك، سيّدي، هـو أن تمضـي علـى هـذه الورقـة وتدعـني أرحـل. لـن أبقـى في الفصـل الرابـع إلى الأبـد.

الفصل الخامس

كلّ ما أريده منك، سيّدي، هو أن تمضي على هذه الورقة وتدعني أمضي إلى حال سبيلي.

لا تستطيع التوقيع على الاستقالة؟

ولكن لماذا؟

لستَ مفتّش التربية؟

من تكون إذن؟

إذا فيّض لهذه الحكاية أن تتوقّف هنا، وأنا مسترخٍ على كرسيّ مريح، أمارس هواية الثرثرة، فستكون أسعدَ نهاية على الإطلاق. هذا يجعلها تعيسة بالمعنى الأدبي، لكنّي أطمئنك بأن هذا الشيء لم ينته بعد.

ولكن، دعني أعود إلى الوراء، إلى تلك اللحظة بالضبط، عندما فاجأني جدّي بالكلمة التي قذف بها فزعًا، عند العتبة: «مكانك!».

بدا حلقه جافًّا، ووجهه الشاحب شاحبًا أكثر من العادة. اصطنع الصرامة على صوته الذي حافظ على ارتباكته وهو يضيف: «إياك أن تفعلها..».

بيد أن نبرة توسّلية داهمته فجأة: «أرجوك لا تقتله».

في الوقت غير المناسب، ككلّ مرّة، يداهمني هذا العجوز الطويل الدقيق كعصًا.

كعصاه التي يمتطيها منذ عرفته.

لو حدث هذا قبل سنوات، لنلت منها نصيبًا من الضربات التي يوجّهها بدقّة متناهية إلى منطقة الكتفين، كافيًا بجعلهما زرقاوين. هذه العصا تمثّل مشكلة حقيقية منذ ظهورها في بيتنا.

قرّرت أن الحل هو أحد أمرين:

اختفاء العصا.

أو اختفاء جدّي نفسه.

ولما كان الأوّل أسهل للتنفيذ، تسلّلت وأخي الأصغر في وقت متأخّر من الليل إلى غرفته، في الطابق العلوي. تأكّدت من نوتات شخيره أنه يغطّ في نوم عميق. مشيت على رؤوس أصابعي وأخي الأصغر يرقبني عند الباب، بحذر.

كان مستلقيًا وسط سريره. أمامه على المائدة، مرمدة متخمة بأعقاب السجائر وجريدة قديمة مبقّعة بالقهوة، عليها فنجان القهوة المرّة الثقيلة. وحدها العصا غائبة عن المشهد المعتم. اقترب موحوش بحذر أشدّ وأشعل ولاّعته. انبلج نور خافت أظهر هيكلاً عظميًّا ملقى داخل بيجامة رمادية، معانقًا مبروكة.

ـ مبروكة!

كان هذا الاسم كفيلاً بزرع الرعب في قلبينا. إنه اسم عصاه الشرّيرة التي كانت تترجم بوفاء منقطع النظير رغبته اللامتناهية في رؤيتنا نتألمّ.

وكانت تلك لحظة مناسبة لانتشالها من بين أحضانه إلى الأبد. رحت أسحبها بهدوء.. شيئًا فشيئًا، حتى كادت تفارقه لتستقر بين يدي، تاركة ذراعية للفراغ. لكنّه في اللحظة الحاسمة تمامًا، انتبه للأمر. أفاق وأطلق صرخة دوّت في أرجاء البيت. ولا أريد تذكّر ما حدث لاحقًا.

أيًّا كان، لم أيأس من المحاولة، رغم تقديري لعواقب ما كنت سأقدم عليه، ورغم انسحاب موحوش من المخطّط. انتهزت واحدة من اللحظات النادرة التي يتخلّى فيها الجدّ عن مبروكة وسحبتها خلسة. تركته مسلمًا ذقنه الكثّ للحلاّق، حين أمعنت فيها انتقامًا.

وفي المساء، عندما التيقت بشكله الجديد والغريب، كدت أبتسم، ليس لأني أراه دون لحية، وأكثر دقّة وجحوظًا، بل لأني أسمعه يشكو المصيبة التي ألمت به: «أولاد الكلبة. سرقوا مبروكة».

غير أن ابتسامتي تحجّرت في شفتيّ، وهو يكشف عن مفاجأة غير سارة: «لكنني أحضرت واحدة أخرى».

فكّرت في أن أنتزعها منه، وأنهال عليه ضربًا. لطالما فعل الأمر ذاته بي وبموحوش، دون أن تأخذه شفقة بنا. فلِمَ يبدو الآن بهذا العطف؟ ومن أجل ماذا؟ من أجل صرصور؟

تعتقد أنّني مجنون؟

لا ألومك.

الحقيقة أنّني لم أُقنع نفسي بالمجيء إليك، إلا بعد أن أقنعتها بأنّني مجنون حقيقي، أو أكاد أكونه. في العادة، لا يأتي إليك غير المجانين. أو على الأقل، أولئك الذين تستحوذ على عقولهم أفكار مجنونة. ربما ليس ثمّة فرق بين الحالتين. أيًّا كان، عليك أن تتحمّل كل هذا، ما دمت ستقبض أجرة في نهاية المقابلة. لكن إياك أن تصدّق أنّني أقنعت نفسي بالمجيء إليك، فقط، لأقصّ عليك حكايات جدّي وعصاه. أسوأ ما في الأمر لم يأت بعد.

دعني أكمل إذن.

ولكن ماذا كنت أقول؟

نعم.

رفعت حذائي، وأطلقت سراح الصرصور الذي لاذ بالفرار، واختفى في ثقب بالباب. ومعه لاذ جدّي إلى غرفته متّكئًا على عصاه، مهمهمًا: «كدت ترتكب حماقة».

فكّرت في أن ألحق به وأنتزعها منه، وأنهال عليه ضربًا. لطالما فعل الأمر ذاته بي وبموحوش، دون أن تأخذه شفقة بنا. فلِمَ يبدو الآن بهذا العطف؟ ومن أجل ماذا؟ من أجل صرصور؟

من الواضح أنّني لا أركّز جيّدًا، بدليل أنّني أكرّر بعض الجمل مرّات عدة. لا علينا. كنت سأضيف أن أمرًا واحدًا

عجزت عن فهمه ـ وهذا لا يعني طبعًا أنّني فهمت بقيّة الأمور ـ إنما قسوته التي تستحيل عطفًا ورقّة أمام هذه الحشرة الصغيرة المقرفة. أقسم إنه لو رآني أهمُّ بقتل أحدهم، لما رفَّ له جفن.

لكنّه أمام الصرصور المستفز، كان مستعدًّا لأن يجثو على ركبيته باكيا: «لا تقتله أرجوك.. أرجوك لا تقتله».

ماذا عليَّ أن أفعل إذن؟

أسْدِ لي بعض النصائح. قدِّم لي بعض الاقتراحات، لعلّ واحدة منها تفلح في وضع حد لهذه المهزلة.

يخرج الصرصور البشع من ثقب ما، يصول ويجول في ردهة الغرفة مثل عنتر زمانه، ولا أحد يستطيع الاقتراب منه، أو حتى التفكير في إلحاق أذىً به. لا، الأمر لم يبلغ هذا الحد، فطالما فكّرت في سحقه، لكن الأمر لم يتعدَّ مجرّد التفكير. لم أجرؤ على فعل ذلك، لسبب وجيه: خشية أن يقتصّ له جدّي.

عندما بثّ خبره المفجع، وأعلن أنه أحضر مبروكة أخرى إلى البيت، تحجّرت الابتسامة بين شفتي، بينما أخفى موحوش وجهه بين ذراعيه، محاولاً ابتلاع ضحكة انفلتت منه. لكنه حين استدار متّجها إلى غرفته في الطابق العلوي، فوجئنا بأن يديه الهاربتين إلى الخلف دومًا لا تخفيان أيّة عصا. هل كان يمزح؟

كلاّ.. جدّي لا يمزح أبدًا.

بعد ثلاثة أيام بالضبط، كانت مبروكة في البيت.

ـ هذه من ستتكفّل بتربيتكما اعتبارًا من اليوم.

قال وهو يشير إلى مبروكة التي كانت مستلقية على الأريكة، بينما هو جالس أمامها، وأبي واقف مثل صنم. كانت طويلة جدًّا، طويلة ونحيفة وشقراء.

أصبحنا في تلك اللحظة ثلاثة أصنام تزيّن بهو البيت. وقفت وموحوش جافلين نبحلق في هذا الشيء الممدّد على الأريكة.

ـ يا إلهي كم هي طويلة!

ـ ما الذي تفعله هنا؟

ـ هل سمعَتنا؟

كأنّني رأيتها تتحرّك. تستوي جالسة، ينفتح ثغرها القاني بأحمر الشفاه عن ابتسامة غير مكتملة، ويسفر عن كلمة واحدة: «اقتربا».

مثل جروين مسحورين اقتربنا. داعبت خصلات شعري بيديها الباردتين، وكذلك فعلت مع موحوش. أخرجت بعض الهدايا الصغيرة من حقيبتها الجلدية الضخمة ووضعتها في أيدينا.

ومثل جروين مسحورين ابتعدنا، تطاردنا كلمات جدّي المختلطة بقهقهاتها: «ماما مبروكة. الويل لكما إن ناديتماها بغير هذا الاسم».

ومنذ ذلك اليوم، لم نكفَّ عن الترديد:

ـ صباح الخير ماما مبروكة.

ـ مساء الخير ماما مبروكة.

لم تكن امرأة رائعة، لكنها لم تكن سيّئة جدًّا. بالأحرى، كانت حيادية.. لم تحبّنا، ولم تبد تجاهنا أيّة كراهية. لم نشكّل لها شيئًا يستحق الاهتمام، إلى غاية هروبها، على عكس أبي، الذي ظلّت تلحّ على جدّي ليطرده. فمنذ أن التحقت بها ابنتها سمّونة للعيش معنا في البيت، لم تكف عن الترديد: «ليس من اللائق أن نبقى وحيدتين مع رجل ثمل على الدوام».

جدّي لم يطرد أبي. هذا لا يعني أن أبي بقي في البيت. اختفى فجأة. لعلّه، المسكين، أدرك أنه لم يعد ضيفًا مرغوبًا فيه، منذ أسلم أبوه ذقنه للحلاق وعاد بشكله الجديد والغريب، أكثر دقّة وجحوظًا، وأكثر شبابًا.

المسكينة أيضا لم تمكث طويلاً. خرجت حافية من البيت في وقت متأخّر من الليل، وهي تصرخ بكلام بذيء. من الواضح أنّها كانت على وشك الجنون بسبب صراصير جدّي.

ـ يا إلهي.. صرصور! صرصور!

حين يلمح صرصورًا في الغرفة أو الرواق أو في أي مكان آخر. يقول ذلك، ثم يلوذ هاربًا، كأي معتوه.

ـ أرجوك لا تقتليه.. لا تقتليه أرجوك.

ـ سأقتله، وسأقتلك أيضا.

في حالة أخرى

ـ مبروكتي غيّري القناة أرجوك. تعرفين أنّني أمقت الصراصير.

ـ بل قل أخاف منها.

جدّي.

هذه الكتلة المتراصّة من الغلظة والقسوة، يصبح أمام مبروكة، وأمام الصراصير، طفلاً صغيرًا أبله.

ـ صرصور.. صرصور.. صرصور..

في تلك الليلة، أفقنا جميعًا على صوت صراخه مذعورًا. أخذ يقسم أن صرصورًا تسلّق سريره وزحف، رويدًا رويدًا، حتى صعد على رجليه، وراح يتقدّم شيئًا فشيئًا ليستقرّ عند رقبته. لم تقلّب مبروكة الفراش بحثًا عن الصرصور المزعوم، بل اندفعت إلى خارج البيت دون أن تجمع أغراضها، دون أن تنتعل حذاءها حتّى. قالت: «سأعود لأتسوّل في الشوارع، أما أنت فابق وحدك في هذا البورديل».

لحق بها محاولاً ثنيها عن الرحيل. خرَّ عند ركبتيها متوّسلاً أن تبقى، فركلته، وصفعت الباب في وجهه الشاحب.

ـ أولاد العاهرة.

انتفض فجأة مثل أسد جريح، وركض إلى الطفلين الذين رأيا المسخرة كاملة من على السلالم. انهال عليهما ضربًا

بالعصا التي لم يريها مذ جاءت مباركة. ولحسن الحظّ، تدخّلت سمّونة في اللحظة المناسبة، وأنقذتهما من جلسة تعذيب محقّقة.

في اليوم الموالي رحلت سمّونة. لم تكن تأتي إلى البيت كثيرًا، لكنّنا تعوّدنا على وجودها. الحق، كانت لطيفة معنا.

وبعد أيام اختفى موحوش، ولم نره بعدها.

وهكذا، بقي في البيت ثلاثتنا فقط: أنا وجدّي والصرصور.

الحقيقة أنّني لا أعلم ما إذا كان صرصورًا واحدًا، أو مجموعة من الصراصير، فالصراصير تتشابه في النهاية. لكنني أعتقد أنه صرصور واحد، لا شريك له.

وعندما لم يعد في البيت إلا ثلاثتنا، تحوّلت إلى ضحية لجدّي الذي لم يستطع كبت مرضه اللعين. راح يجبرني كل مساء على الذهاب معه إلى غرفته. يوصد الباب بإحكام حتى لا أهرب. يضع أمامي قطعًا من الحلوى، كي أتلهّى بها. يستلقي على فراشه، أمام مباركة، العصا. يسألني وهو يرمقني بنظرته المخيفة: «أنت مستعد؟».

أجيبه وأنا أحرّك رأسي إلى فوق وأسفل. فيشرع في جلسة التعذيب.

يروي لي مغامراته وبطولاته، حين كان في ريعان شبابه وأوجّ قوّته. كانت حكاياتٍ كثيرة ومتشعّبة وغريبة.

في حكاية

صارع ثورًا هائجًا، فأرداه صريعًا بضربة واحدة بيده.

في حكاية أخرى

اعترض سبيله خمسة قطّاع طرق شداد غلاظ، فواجههم بشجاعة قلّ لها مثيل. لم يرفّ له جفن وهو يجرّدهم من سكاكينهم وسيوفهم، ثم من ملابسهم. خلّفهم وراءه مشدودين إلى جذع شجرة، وعاد بالغنائم إلى جدّتي التي كانت تفاخر نساء القرية بزوجها العجيب.

حكاية أخرى

تحدّاه رجال القرية أن يأكل مائة بيضة ويشرب خمسين قارورة جعة: «لستَ رجلا إن لم تفعل». التهم مائة بيضة نيئة وزاد عليها واحدة، وأفرغ في جوفه خمسين قارورة جعة وزاد اثنتين. بات ليلته تلك في المستشفى، لكنه أثبت للجميع أنه الرجل رقم واحد، دون منازع.

«كنتُ أقوى رجالات القرية وأشجعهم. حين أسير في الشارع، يوسّعون لي الطريق، وحين.. ».

تعبت. يكاد رأسي ينفجر من هذه الحكايات التي لا تنتهي. بإمكاني أن أستمرّ دون توقف، أن أملأ ثلاثين صفحة إضافية ببطولات جدّي.

أستمع إليه بكل جوارحي، لكن مرغمًا، حتى لا يذيقني من عذاب مبروكة. أصيخ السمع، كيلا تخونني ذاكرتي إذا ما فاجأني يومًا، وطلب مني إعادة سرد واحدة من حكاياته.

ذات مرّة، طلب مني أن أكمل حكاية رواها لي قبل أشهر. تقول الحكاية إنه كان في رحلة صيد مع ثلاثة من أصدقائه. اصطادوا الكثير من الأرانب والطيور، لكنهم حين همّوا بالعودة، فاجأهم نحو ستّين رجلاً يحملون بنادق وخناجر. أحاطوا بهم وأعلموهم أنهم اقترفوا ذنبًا لم يقترفه أحد إلا نال جزاءه. أمّا الذنب فهو تجرّؤهم على الاصطياد في أرض غيرهم، وأمّا الجزاء فهو القتل. واجه جدّي الأمر بشجاعة، وخاطب أصدقاءه الذين ارتعدت فرائسهم رعبًا: «علينا أن نواجه هذا المصير كما يواجهه الرجال. هذا لا يعني الاستسلام، ولكن يجب أن ننال جزاء الخطأ الذي اقترفناه».

توقّع جدّي أن يضرب هؤلاء عنقه، لكنه تفاجأ بهم، بمجرّد أن أنهى كلامه، محيطين به، وعلى وجوههم علامات الإعجاب. قال زعيمهم: «عرفت ورأيت الكثير من الرجال، لكنني لم أعرف رجلاً من معدنك».

وقال آخر: «رجل مثلك، أكون أسعد الناس لو زوّجته ابنتي».

عندما كان الجمع منشغلين بهذا الرجل الفريد، انتهز أصدقاؤه الفرصة ولاذوا بالفرار. شعر جدّي بالخزي فصرخ فيهم: «عودوا يا عديمي النخوة.. أقسم إني سأذيقكم العذاب، لو كان في العمر بقية».

ولأن جدّي واجه الأمر بتلك الشجاعة، فقد أكرمه القوم سبعة أيام كاملة، وأعطوه سبعين أرنبًا وثلاثة وثلاثين طائرًا، وفوقها جدّتي.

هـذه هـي النسـخة الأصليـة للحكايـة، أمـا أنـا فقلـت، حين طلب مني أن أعيدها على مسامعه، إن عدد أصدقائه ستّون وعدد الرجال الذين اعترضوا طريقهم ثلاثة، وإن القوم كافؤوه بثلاثة وثلاثين أرنبًا وسبعين طائرًا.

ربطني إلى السرير وكافأني بمائة فلقة وزادها ثلاثًا، بعدد الأرانب والطيور مجتمعة، حتى لم أقو على الوقوف على رجْليّ سبعة أيام كاملة.

حفظت حكاياته عن ظهر قلب، لكنني لم أصدّقها يومًا. فتلك البطولات الخارقة لا يمكن أن يأتي بها عجوز تعيس يخاف من صرصور.

ـ إيّاك أن تقتله.

ـ لست أهم بقتله، أناوله الطعام فقط.

رحت أقدّم له الطعام صباح مساء، وراح يكبر ويكبر، حتى تجاوز الحجم الطبيعي للصراصير. وعندها، أيقنت أنّني أمام صرصور غير عادي. صرصور بتُّ أخافه، ربما أكثر ممّا يخافه جدّي نفسه.

كبرت، وأصبحت في هذا العمر. وكبر الصرصور أيضا. أصبح بحجم أرنب، ثم بحجم خروف.

عندما أصبح الصرصور بحجم خروف تقريبا، اختفى جدّي. طرحت فرضيتين لهذه القضية:

الأولى

رحل إلى بيت آخر في مدينة أخرى، وتزوّج امرأة أخرى.

الثانية

مات. بجلطة دماغية مثلا. لا أذكر أنّني رأيته ميتًا، أو حضرت جنازته. لكن هذا لا يقلّل من الفرضية.

مات جدّي، لكن الصرصور لم يمت.

لم يبق في البيت غيرنا: الصرصور وأنا.

أصبح بحجم خروف. والآن صار بحجم فيل.

تخيّل صرصورًا بحجم فيل. أليس الأمر مُريعًا؟

لعلّك لا تصدق؟

بإمكانك أن تأتي معي إلى البيت وتشاهده بأمّ عينيك.

مات جدّي.

كبر الصرصور.

أصبح بحجم الفيل.

أمّا أنا فسأصاب بالجنون. هذا إن لم أكن قد جُننت فعلاً. أرجوك، صارحني يا دكتور، هل أنا مجنون؟

تتمّة

في المقهى التقيته مجدّدًا، موحوش، بدا لي مختلفًا. وقبل أن يتسلّل إلى الخارج، هاربا من دفع الحساب همس في أذني: «لديّ خبر لك. لقد جُننت».

ـ فعلت ذلك قبلك، ولا أحد أراد تصديقي.

ـ هذا سيثير بعض المتاعب، لكن لا يهمّني الأمر. المهم أنّني جُننت وكفى.

ـ بإمكاننا أن نُصبح صديقين إذن؟

ـ طبعا.. طبعا..

ـ لكن أخبرني لماذا قرّرت، فجأة، أن تصبح مجنونًا؟

ـ ليس ثمّة سبب واضح. أقصد أن هناك الكثير من الأسباب التي تدفع بالمرء إلى الجنون. أعتقد أنّني تأخّرت.

ـ أبدًا، مازلت صغيرًا يا رجل، والعمر كلّه أمامك. كيف وجدت الأمر؟

ـ مسليًّا، لكن المشكلة أنهم لا يأخذون الأمر على محمل الجدّ.

ـ لا شيء يأتي بسهولة يا صديقي. ثمّة ثمن يجب أن ندفعه دائمًا، لكنّني أريد سماع أسبابك.. هل هي مقنعة؟

ـ لا أعرف.

ـ فيمَ تفكّر الآن؟

ـ في الهروب. وأنت؟

ـ في القفز.

الفصل السادس

على الأرجح، بل من المؤكّد، أن الشخص الذي يهمّ بالقفز من على سطح العمارة المهترئة المؤلّفة من ستة طوابق، هو أنا.

شيء واحد يجعلني متأكّدًا من ذلك: هذه الملابس التي أعرفها جيّدًا.

هذا القميص الأسود الشاحب لي..

وسروال الجينز الأزرق المغبرّ لي..

وذلك الحذاء الرياضي الأبيض المتّسخ لي..

أذكر أنّني اشتريته، الحذاء، من المحلّ س قبل ثلاث سنوات بالضبط. كان موضة دارجة في تلك الأيام.

الشخص الذي يهمّ بالقفز من على سطح العمارة المهترئة المؤلّفة من ستّة طوابق، قد لا يكون أنا.

قفز احتمالان إلى رأسي للتوّ.

الأول

أعرت ملابسي لمعتوه ما، وها هو يهمّ بالقفز من هذا العلو الشاهق بها. أخشى في هذه الحالة، أن يتمّ استدعائي

للتحقيق في ملابسات الحادث. كان عليه أن يعيد لي أغراضي، على الأقلّ حتى لا أخسرها عندما يموت.

الثاني

سرقها منّي أحدهم.

تسلّل إلى شقّتي أو أخذها وهي معلّقة على الشرفة.

اختلسها مني وأنا أسبح، في المسبح أو في البحر. ولكم أن تحدسوا بما حدث بعد ذلك.

دعونا من هذا، ولنتّفق على أنّني من يقف على سطح العمارة. حينها سيكون أمامي خياران:

الأول

أن أصعد إليّ، وأحاول إقناعي بعدم القفز من ذلك العلو الشاهق. أستبعد أن أسمعني، فمن الواضح أنّي مصمّم على المضيّ في القرار.

الثاني

أن أنضمّ إلى كوكبة المارّين الذين سيجتمعون، بعد قليل، مثل كمشة جعارين عثرت على روثة بقرة، طازجة، وأقف بينهم. أرقبني بقليل من الحذر، وأردّد معهم الأسئلة التي لا تحمل كثيرًا من الحيرة: «هل سيفعلها؟ لماذا يريد أن يفعلها؟».

هل سأفعلها؟

لماذا أريد أن أفعلها؟

أعرف أن حكايات الانتحار قفزًا من سطح عمارة، وما يصحبها من تشويق، أصبحت مملّة ولم تعد تشوّق أحدًا، ليس لأن روايات وأفلامًا كثيرة تناولت الموضوع، بل لأن الأمر كان يتكرّر لدرجة أنه لم يعد يشكّل أمرًا استثنائيًّا. حتى الجرائد الصفراء، كفّت عن نشر أخبار المنتحرين بهذه الطريقة. إن كنت تحلم بأن تكتب عنك جريدة ما، فاختر طريقة أخرى لموتك.

لنأخذ شارع س على سبيل المثال: عدد المنتحرين الذين يتساقطون من هنا وهناك، دون أن يثيروا انتباه أحد، أكبر من عدد المارّة أنفسهم. إن كنت مارًّا بالشارع، فكلّ ما عليك فعله هو عدم الاقتراب كثيرًا من جدران العمارات، حتّى لا يسقط عليك أحدهم. هذا إن كنت ترغب في العيش أكثر. أمس فقط، قفز س ما من عمارة ما، فمات وقتل س كان يسير ملتصقًا بالجدار. حدث ذلك صباحًا، أما في المساء فقفز س آخر من الطابق الثالث، ولأنه كان سمينًا، فقد تبعثرت كرشه في الطريق، ولم يسأل أحد عن السبب الذي دفعه إلى فعل ذلك.

عندما يصعد أحدهم إلى سطح عمارة ويهمّ بالقفز، لا أحد يتربّاه ألاّ يفعل. ربما لأن الجميع يفكّرون في فعل الشيء نفسه.

إذن، لن يجتمعوا، بعد قليل، مثل كمشة جعارين عثرت على روثة طازجة، ولن تقف بينهم. لن ترقبني بقليل من الحذر، ولن تردّد معهم الأسئلة التي لا تحمل كثيرًا من الحيرة: «هل سيفعلها؟ لماذا يريد أن يفعلها؟».

لن أتساءل:

هل سأفعلها؟

لماذا أريد أن أفعلها؟

حين قرّرت القفز من الطابق السادس، لم أفكّر في إثارة انتباه أحد، بدليل أنّني أقف على الحافة ولا أهدّد بالقفز، بل سأقفز مباشرة.. سأقفز دون أدنى تضييع للوقت. سأقفز حتى إن لم يكن لديَّ سبب مقنع لذلك.

عليَّ أن أقفز إذن.

لا تعوزني الشجاعة. إنما لا أعرف لِمَ تنتابني، فجأة، رغبة جامحة في تدخين سيجارة. ليكن ذلك آخر ما أفعله. ليس ثمّة أجمل من أن تدخّن سيجارتين ثم تقفز. أقلّب جيوبي علّني أجد بعض أعقاب السجائر، فلا أجد غير الخواء. إن كان ولا بدّ، فلا بأس من السير خطوات قليلة إلى كشك موحوش، لآخذ منه سيجارة أو اثنتين. لسنا صديقين، لكني وبصفتي زبونًا مداومًا على اقتناء الدخان منه منذ سنوات، سيكون بإمكاني أخذهما على أن أسدّد ثمنهما في وقت لاحق، كما اعتدت أن أفعل. سيُخرج دفتره الصغير العتيق، ويدوّن ثمن ما أخذت في الخانة التي تحمل اسمي.

لن أصارحه بالحقيقة، لن أخبره بأنّني لن أدفع ثمنها في المرّة القادمة، وأنه لن تكون ثمّة مرّة قادمة. إذ عليَّ أن أقفز من الطابق السادس، بمجرّد أن أنهي السيجارة الثانية. وعندما يكتشف الأمر، سيكون قد فات الأوان.

إن رفض، فسأضطر لممارسة هوايتي القديمة.

تعبت.. سآخذ فاصلاً أو اثنين وأعود.

فاصل

في مثل هذه الظروف التي أمرّ بها هذه الأيام، منذ أسبوعين على وجه الدقّة، تُصبح دفرة وقيس بمثابة حلم. أمّا هوبلة، فلا يحتضنها جيبي حتّى في أجمل أحلامه.

لجيبي حلمٌ يتيم: أن يضمّك أيتها الأنيقة إلى صدره بشغف، كما يضمّ أيّ عاشق محبوبته حين يلتقي بها بعد تناء.

قبل عشرين يومًا، أخرجتُ آخر هوبلة من جيبي، حين تناولت العشاء مع س٤ وس٣ في مطعم فاخر بشارع س. كان معهما شخص ثالث نهم لا أذكر اسمه، وكنتُ طبعًا من دفع ثمن العشاء. واليوم، أجدُني غير قادر على إجراء مكالمة هاتفية قصيرة أو إرسال رسالة قصيرة جدًّا، أو حتى شراء سيجارة من النوع الرديء. لو كان معي مثل ذلك المبلغ، لما أعدت تلك الغلطة التي طالما ارتكبتها.

لي الآن حلم يتيم، ساذج ومجنون: أن أشتري عشرين علبة دخان وأنثر ما فيها من سجائر على امتداد غرفتي.. أستلقي بينها وأدخّنها واحدة تلو الأخرى.. أستنشق رائحة الدخان بلذّة حتى أحلّق في الهواء، وأخرج معه من النافذة، لأتلاشى في سماء ما.

لا أفتقدكَ يا س٤، ولا أنتِ يا س٣. لم يتّصل بي أحد منكما منذ خمسة أيّام كاملة. كل ما أفتقده هو تلك السيجارة التي تنتحر في فمي اشتعالاً، كما انتحرت كل أحلامي الغبيّة طيلة الأربع والعشرين سيجارة التي احترقت من عمري.

حتى أنتِ يا س٢!

كم يومًا مضى دون أن أجدك على الإنترنت؟

أتساءل إن أبرمت اتّفاقًا مع ذينك الخبيثين على عزلي؟

عودي أرجوك. ألا تعلمين أن «السكايب» صحراء واقعية دونك؟

ليس من عادتها الغياب كل هذا الوقت. منذ تعرّفت عليها أواخر العام الماضي، وأنا أدردش معها كل يوم تقريبًا. وقد اكتشفت أنها مدمنة على الإنترنت، كما أنا مدمن على تلك السيجارة المشتهاة بحرقة في لحظات الحرمان هذه.

صدقًا، أدمنت على تلك الجميلة الأوروبية ذات الستّة والعشرين عامًا.

كانت شقراء، نحيفة وطويلة، تترامى بثور سوداء على صدرها البرونزي نصف العاري على الدوام.

ليس صحيحًا. لم أرها على الويبكام ولم تطلعني على أيّ من صورها طيلة الأسابيع الأولى من بداية علاقتنا الافتراضية. بيد أن ذلك لم يمنع علاقتنا من أن تتوطّد يومًا بعد يوم، حتى بتُّ لا أتحمّل الانقطاع عن التواصل معها.

أخبرتها بكل شيء عنّي تقريبا، وفعلت الشيء ذاته: بلغة الأرقام، وُلدت قبل أربعة وعشرين عامًا. تخرّجت من الجامعة قبل عامين، وطُردت من وظيفتي قبل شهرين، بعد شهرين من التحاقي بها.

ليس الأمر مسلّيًا، لكنّنا ضحكنا كثيرًا وأنا أسرد لها يومياتي في العمل.. أصل كلّ يوم إلى المؤسّسة متأخّرا بساعة في أحسن الأحوال، بعد ليلة مرهقة قبالة الكمبيوتر، عادة ما أكون قد التهمت فيها أربعين سيجارة على الأقلّ.

تستقبلني السكرتيرة، وتقول لي دون أن تنسى تحيّتها اللطيفة: «المدير يسأل عنك».

أتسلّل إلى مكتبي متمنيًّا ألاّ ألتقي به. أحاول اجتنابه طيلة اليوم، لكن أصابعه تفاجئني وهي تلكزني على كتفيّ: «لعلّك تعتقد أنّك تعمل عند أبيك؟ يا خويا حتى اللي يخدم في رزق باباه يحترم الوقت».

لا أجد مبرّرًا لقلة انضباطي. لكن المدير الذي لا تنقصه اللباقة متسمّر في مكانه ومصمّم على سماع أيّ عذر، فأكتفي بهذا المبرّر الفضفاض الذي سمعه منّي كثيرًا: «لدي مشاكل هذه الأيام».

يهزّ رأسه وينصرف، وهو يقول دون أن يلتفت إليّ: «أعتقد أنّك في مكان عمل ولست في نادي إنترنت. الدردشة ممنوعة».

سمعت منه عبارة مشابهة أمس: «أعتقد أنّك في مكان عمل ولست في مقهى. التدخين ممنوع».

وقبل ذلك، سمعت منه عبارة مشابهة أخرى: «أعتقد أنك في مكان عمل ولست في تاكسي فون. استخدام الهاتف للثرثرة الشخصية ممنوع».

من الواضح أنّ كلّ شيء ممنوع في هذه المؤسسة. قريبًا سيمنعون عنّا التنفس أيضًا. لكني أعترف بأنّني غير منضبط، والمشكلة التي أبرّر بها تأخّري المتكرّر ليست، في الحقيقة، سوى عدم قدرتي على الاستيقاظ باكرًا. حاولت مرارًا، لكن محاولاتي كانت تُمنى بالفشل دائمًا، ما جعل المدير يضيق بي ذرعًا. بالطبع، ما كنت لأخبره بالسبب الحقيقيّ.

فكّرت في أني سأفقد الوظيفة إن واصلت بهذا الريتم. تعبت كثيرا حتى وجدت منصب عمل بكل تلك الامتيازات، وأعتقد أنّني على وشك إضاعته.

كان عليّ أن أفكّر في الانضباط كيلا أخسر عملي، وهو ما فعلته في تلك اللحظة. ابتداءً من يوم غد سأُحدث مفاجأة.. سأدخل إلى المؤسّسة على الساعة الثامنة تمامًا، وسأكون أول موظّف يحضر إلى العمل.. مع الوقت سأغيّر انطباعهم السيّئ عني.

في اليوم التالي، دخلت على الثامنة صباحًا، كما قرّرت، لكن وجدتني في مكتب المدير أستجديه ليمنحني فرصة أخرى، بعد أن وجدت على مكتبي ورقة تسريحي من العمل تحمل توقيعه. فرصة واحدة وسأثبت لك بأنّني تغيّرت، أعدك.

اكتفى بالقول: «آسف.. منحتك فرصًا كثيرة، لكنك خيّبت ظنّي في كل مرّة».

ـ فرصة واحدة فقط.. أرجوك.

ـ ولا نصف فرصة. تحتاج إلى درس قاس كي تتغيّر.

ـ أشعر بدوار.. أكاد أسقط أرضًا. من الواضح أنّني أعاني من نقص في النيكوتين.

ـ لعلّك تتعاطى المخدّرات؟

ـ فعلتُ ذلك أيام الثانوية مع بعض الأصدقاء، لكنني لم أدمن. أقلعت عن تلك العادة، وأنتِ؟

ـ أبدًا.. لا أطيق حتى رائحة السجائر.

ـ هههههههههه.. لا أسألك إن كنت مدمنة على المخدّرات. حدّثيني عنكِ.

أخبرتني بأنها توشك على إكمال دراستها الجامعية. أفكّر في فتح عيادة خاصّة.

ـ أنت طبيبة إذن؟ هذا بالتحديد ما أحتاج إليه يا عزيزتي.

ـ هههه.. سلامتك، مِمَّ تشكو؟

ـ من كل شيء. كل شيء يؤلمني. حتى شعري وملابسي.. العالم كله يؤلمني، وأنا لست مجنونًا على فكرة.

ـ لا يمكن إلاّ أن تكون مجنونًا أو عبقريًّا.

ـ يُقال إن بين الجنون والعبقرية شعرة.

ـ دعني أراها من الجانب الإيجابي إذن.

تحدّثنا كثيرًا. وكنت سأعلن لها عن رغبتي في السفر إليها، لكنها بادرت بنفسها إلى إعلان ذلك، وقالت بالحرف الواحد: «سنتزوّج، وسنملأ هذا البيت أطفالاً».

نتزوّج! مرّة واحدة!

كدت أسألها إن كان بيتها كبيرًا، ببهو واسع وغرف كثيرة وشرف تطلّ على شوارع راقية، أم أنه محض شقّة من غرفتين ونافذة واحدة، كهذه الغرفة التعيسة، لكنّني عدلت عن فكرتي السخيفة وأنا أسمعها تقول عبر المايك: «أحبك».

لعله الحب من أول شات! من يدري؟ قد يصبح الافتراضي حقيقة. صديقي س يتمرّغ الآن في النعيم بفضل شابّة تعرّف عليها عبر الإنترنت. قال لي في آخر دردشة: «واش راك تسنّى يا بغل؟ فهّمني برك واش راك ادير ثمّا؟».

ـ لا أفعل شيئا. أقصد أنّني أتسكّع وأدخّن. هذا كلّ ما أفعله تقريبًا. وأنت ما أخبارك؟ أرى أنّك أصبحت سمينًا كبغل.

ـ مهلاً يا عزيزتي، لم أرك حتى.. ابذلي مجهودًا أرجوك.

بذلت س٢ مجهودًا، واكتشفتُ أنها كتلة من الشحم، ذات وجه سمين تملؤه البثور، ونظّارات رؤية بشعة. لم أُصدم بالمعنى الحرفي للكلمة، لكنّني قرّرت أن أحلام السفر تبخّرت، وأنها ليست الفتاة التي سأرتبط بها، حتى وإن كان الثمن بيتًا كبيرًا، ببهو كبير وغرف كثيرة، وشرف تطلّ على شوارع راقية.

كنت أفضّل العيش في شقّة متداعية مع س١.. في غرفة فوق سطح عمارة آيلة للسقوط مع سمّونة. تلك بعض أحلامي المتبخّرة. فالأولى تزوّجت وسافرت، بعد قصة حب بيننا استمرت عاماً كاملاً، ولم تترك غير هذه الصورة التي لم تزل تزيّن سطح الكمبيوتر، وتطالعني كلّما أشعلته مثل فيروس لعين أود اقتلاعه لكنّني أتراجع كلّما كدت أفعل، والثانية انتحرت، أو هذا ما كُتب في تقريرها الطبي. وهذه لم تترك غير الوجع.

سمّونة!

كانت رشيقة وشهية كسيجارة. منذ فقدتها أصبحت أقضي على علبتين في يوم واحد.

هههه، طلب مني ذلك المعتوه التوقّف عن التدخين. قال لي أنّني أعرّض صحّتي للخطر، وأضاف بنبرة تهديد بأنّني سأُصاب بمرض تنفّسي مزمن في غضون أشهر أو أسابيع، إن واصلت بتلك الوتيرة.

أكره هذا الطبيب الذي لا يتوقّف عن إسداء نصائحه المملّة وهو يفحصني بسماعته التي تزيّن صدره النحيف. إنه يعاملني كأيّ زبون عادي ينتظر منه أجرة في نهاية الفحص، متناسيًا صداقتنا. كأنّنا لم ننشأ في حي واحد، في عمارة واحدة، كأنه لم يدخل بيتنا ولم يأكل معي في صحن واحد. كأنه لم يرضع من ثديي أمّي.

ـ تناول هذه الأدوية، وعُد إليّ بعد ثلاثة أسابيع.

آه، هذا الجرو المغرور الذي صدّق أنه أصبح طبيبًا هو أخي في الرضاعة إذن؟ كدت أنسى ذلك. بالطبع لن أعود

إليك بعد ثلاثة أسابيع، ولا بعد ثلاث سنوات. مجيئي إليك في الأصل كان خطأ. لا شك أنك تنتظر منّي مقابلاً. ماذا ستفعل حين تكتشف أنّني لا أحمل فلسًا واحدًا؟

ـ تذكّر أن الدواء لن يفيدك إن لم تقلع عن التدخين. على الأقل، حاول أن تنقص منه.

لن أقلع عنه. أنت لا تعرف معنى التدخين. أخبرني بربّك هل جرّبته ولو لمرّة واحدة في حياتك؟ هل تذوّقت نكهة السيجارة ورائحتها الذكية؟ لا يمكنك أبدًا أن تتخيّل ذوقها. إنه ألذّ من أيّة فاكهة. كم أنت مثير للشفقة أيها المخنّث! لو جرّبته، لما كنت لتطلب مني الإقلاع عنه. بل كنت ستطلب مني أن أكمل، إن لم تدفع لي ثمن علبة يا أخي. أعرف أنك لا تعرف ثمنها. لا تخف، ليست مكلفة، أقصد أنها لن تكلّفك كثيرًا.

ـ ألف دينار.

ـ لا، ليست باهظة إلى هذا الحد. مائة دينار فقط.

ـ بل ألف دينار، هذا ثمن الفحص. ادفعها عند السكرتيرة في الخارج.. ولا تنس العودة بعد ثلاثة أسابيع.

لن أدفع. ليس معي سنتيم واحد. حتّى الدخان أشتريه بالاقتراض من س الذي أدين له بثروة.. سأذهب الآن، ولن أعود أبدًا. ولكن قبل ذلك، دعني أنهال عليك بالصفع. لن تقاوم بالتأكيد. أمّا إن حاولت، فسأفاجئك بنطحة تسقطك على مكتبك المرتّب، وحينها سألفّ السمّاعة على

رقبتك النحيفة، وأخنقك بها. ستتوسّلني وأنت تصرخ باكيًا مثل أنثى: «تذكّر أنّني أخوك في الرضاعة».

– لو كنا إخوة لما طلبت مني دفع الحساب.

– لا يا حبيبي.. عندما أكون في مكتبي، بابا وما نعرفوش.

– لن أقتلك، سأتركك تتخبّط. أنت من عليه شراء أدوية الآن.. أما هذه الوصفة فاحتفظ بها لنفسك.. امسح بيها ترمتك.

رغم ذلك، أخذت كلامه على محمل الجدّ وقرّرت أن أقلع عن التدخين، أو بالأحرى أن أنقص منه، إذ لم أكن أرغب في الإقلاع عن هذا الصديق اللدود.

لأُصب بالربو أو بالسل، أو حتى بالكوليرا، لست مستعدًّا للابتعاد عنك يا صديقتي. أنت التي تحترقين كشمعة لتؤنسي ليلي الموحش.

الحكمة أنصفت الشمعة وظلمت السيجارة.

بالنسبة لي، لا شيء تغيّر، ولا شيء سيتغيّر اليوم.

ولا غدًا.

حين استلقيت أمام الكمبيوتر في ذلك المساء وتعرّفت على س٢ وتحدّثت معها طيلة الليل، وجدتني أدخن سيجارة، فثانية، فثالثة. وحين تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الليل، كنت قد أجهزت على علبة كاملة.

سيقهقه س ويضحك طويلاً حين أخبره بشكلها، ولا شك أنه سيرسل لي ألبوم صوره مع زوجته الجميلة ليغيظني. أعرفه جيّدًا، إنه كتلة من المرح الممزوج بحيوية وذكاء. هكذا عرفته طيلة صداقتي به أيام الجامعة، ويبدو أن الغربة لم تغيّره. ضحك كثيرًا، وأرسل لي ألبوم صور.

ـ لا أصدّق! لا تقل لي إنك أصبحت أبًا؟

يا للصغيرة الجميلة!

أخذت من والدها سمرته ومن أمها زرقة عينيها. سأضع صورتها واجهة لسطح الكمبيوتر الذي سكنته س١ طويلاً.. س١، آسف من أجلك، حان الأوان لأقتلعك من هذا الجهاز، ومن هذه الذاكرة.

ـ اشتقت إليكم.

إنها المرّة الثانية التي أرى وأسمع فيها س يبكي. كانت الأولى حين أخبرته بانتحار سمّونة. حينها بكى كطفل، وأقسم أنه كان سيأتي لولا أنه لم يسوِّ وثائق إقامته بعد.

ـ سآتي في منتصف الصيف، وسأحضر معي زوجتي وسمّونة.. أطلقت عليها هذا الاسم، وفاء لروح سمّونة ولصداقتنا.

س٢!

هل انجذبت إليك لأنّني تخيّلتك تشبهينها؟

وهل تعلّقت بك لأنّني وجدت فيك شيئًا من روحها؟

وأنت سمّونة!

لماذا رحلتِ؟

لا شيء يعذّبني غير غيابك، غير رحيلك المرّ. ما زلت غير مصدّق أن جسدك الغض انتهى مهشّمًا بعد قفزة مجنونة من الطابق الرابع، وأن ابتسامتك الجميلة أطفأها ذلك السقوط المريع.

لماذا فعلتِ ذلك؟

على الرصيف أزرع خطوات منهكة، أنا العائد مهزومًا من المعركة. أحدّق في الوجوه المتعبة.

غريبة هذه المدينة.

غريبة هذه الوجوه.

أشعر بالحزن منذ فقدتك، يشبه الراحة التي كنت لأشعر بها لو فقدت الذاكرة. مشهد لقائنا الأخير لما يزل عالقًا بذاكرتي الممزّقة، بكل تفاصيله الموجعة.. ملامح وجهك الطفولية، شبه ابتسامتك المحيّرة، نظراتك المضطربة، حركات أصابعك القلقة.

حدّقت في عينيك وبحثت عنك،

لم أجدك.

قلبي سقط في فنجان القهوة،

عيناي تاهتا في الغيوم.

كثيرًا سبحت في الوهم.

الآن سأغرق في الحزن.

من خلفنا تسقط أوراق..

على جانبينا يعبر قطار.

أمامنا عيون تمتهن التعاسة، أفواه تخبّئ الأسئلة. خلفنا أحلام تتبخّر في الفراغ، أيام تنفلت من بين أصابعنا.

ماذا يهمّنا الآن؟

ماذا سنخسر بعد اليوم يا حبيبتي؟

لسنا معنيَّين سوى بأحزاننا، بلقائنا الجليدي، في هذا المساء الخريفي، في هذا المقهى المطلّ على أتعس شارع في العالم.

إذن، فلتسقط الأوراق، حين تعصف الريح،

فليعبر القطار، حين تدقُّ الساعة.

كنت أبحث عن شيء يشبه الحب، أنا الضائع في هذه الشوارع الطويلة الضيّقة. تحالف الليل والبرد لم يعد يخيفني، الكلاب المشرّدة لم تعد تفزعني. وحده غيابك يؤرّقني.. أرى عينيك حين أغمض عينيّ، وحين أفتحهما أرى هذه الكوابيس، وهذا الخراب الممتدّ إلى ما لانهاية.

أشتاق إليك، وأحنُّ إلى تلك الأيّام التي كانت فيها ضفيرتاك الكستنائيتان تغطّيان كلّ الخراب، وقهقهتك تخترق

الشارع الغارق في الصمت والكآبة.

العصافير،

كانت تحطّ على كتفيك لتنام.

وزرقة السماء،

كانت متّصلة بعينيك.

بيني وبينك، لم يكن هناك غير نصف خطوة..

الآن، تمتدّ بيننا كل مسافات العالم البشع، كل ساعات الزمن التعيس.

لست بحاجة سوى إلى سيجارة أدخّنها بعمق، كتلك التي تقاسمتها معك نفَسًا بنفَس في حديقة الجامعة في سنتنا الأخيرة. هناك، حيث تبادلنا قبلة عميقة تعبق برائحة الدخان.

ـ لكنك ستتأخّر عن درس اللغة الإنجليزية!

ـ لا تهمّني الإنجليزية يا حبيبتي.

ـ سأتأخّر عن درس القانون الدولي.

ـ العلاقات الدولية ليست أهم من علاقتنا. سترتكبين حماقة إن رحلت.

ـ ناولني سيجارة إذن!

أحطتها بذراعيّ،

وحده هذا الحضن يشعرني بالحياة.

سمّونة، بعيدًا عنك أختنق.

سمّونة.. س٢.. لم أعد أتحمّل هذا الغياب. لا أتحمّل غيابك أيتها السيجارة اللعينة التي تحرقني. تعالي. أرغب في إحراقك.

سأدلف إلى الشارع المعتم، لألتقط أعقاب السجائر كأيّ مشرّد. لن يراني أحد في هذا الوقت المتأخّر من الليل وأنا أنتقل من رصيف إلى رصيف بحثًا عن بونتة ما زالت صالحة للاحتراق، أو فليرني من شاء. لست أهتمّ.

بداية موفّقة!

هذه بونتة لم يأخذ منها صاحبها إلا أنفاسًا معدودة، قبل أن يخلّفها وراءه ويمضي إلى حال سبيله. تعالي يا صغيرتي.

احتمال

صاحبك البرجوازي تركك وحيدة للبرد وأنت تتوقين إلى الاحتراق.

مرّ من هنا. كان يتشبّث بمعطفه الأسود الطويل، يتأبّط جريدة، يمشي بحذر كما لو أنه في حقل ألغام، يتأمّل حذاءه البنيّ اللامع. يعلم جيّدًا أنها تمقت الأحذية المتّسخة. حرص على تلميعه قبل أن يخرج من البيت.

أنا لا ألعقها، لكنني أحبها نظيفة، لامعة.

احتمال آخر

تعيس.. كان على عجلة من أمره، ركض مسرعًا ورمى سيجارته دون أن يكملها. لِمَ يركض؟ وإلى أين كان متّجهًا؟

أخبروه بأن جدّته تحتضر وأنه قد لن يلحق بها. وجدها ميتة.

حفيدي، احرص على دخول البيت مبكّرًا، إن شئت ألاّ يفوتك مشهد جدّتك وهي تموت. على كلّ فات الأوان. يؤسفني أنّني لن أستطيع الموت مرّة ثانية.

هذه أسئلة ثانوية، السؤال الجوهري هو إن كان يملك ثمن سيجارة أخرى، أم تراه يتحسّر على فعلته؟

جدّتي انتقلت إلى رحمة الله الواسعة، وأنا ماذا سأفعل الآن؟

أغلب الظن أنه لن يعود للبحث عنها، وإلا انتظرته تحت هذا الجسر لأردّ إليه صغيرته.

احتمال آخر

شابة جميلة مرّت بسيارتها الفاخرة، ورمتها بعد أن سحبت ثلاثة أنفاس وهي ترفع ذراعها بغنج.

احتمال آخر

سيّدة عادت من عملها وسارعت إلى ممارسة عادتها السرّية، قبل أن تدخل إلى البيت. أخرجت بعد ذلك لبانًا من النوع الفاخر من حقيبتها الصغيرة وراحت تلوكه،

لتطمس أدلّة كذبتها اليومية، التي تخفيها عن زوجها المغدور.

لو كنت مكانه، لما عمّرت كذبتها طويلاً. لن أكون بحاجة إلى الاستعانة بمخبر لضبطها متلبّسة بجريمة الخيانة الزوجية مع سيجارة. بالتأكيد لن أعوّل على الرائحة، سيكون صوتها الخشن وأسنانها وأصابعها المصفرة أدلّة كافية لإدانتها.

لا أحبّ المرأة صاحبة الصوت الخشن. لا تعجبني ذات الأصابع المصفرّة. أمقت ذات الأسنان الصفراء. أحبّها بصوت ملائكي رقيق، وأصابع طويلة وناعمة وأسنان بيضاء ومتناسقة.

لو كنت مكانه، لما اضطرّت إلى أخذ أنفاس سريعة بعيدًا عن الأنظار، ومضغ كمية كبيرة من العلك الفاخر لإخفاء الرائحة، كانت ستشعل أول سيجارة بمجرّد أن تضع رجليها في البيت، قبل أن تلتحق بي لندخّن ونشتعل معا.

في جيبي بونتات مختلفة الطول.. هذه لم يبق منها إلا القليل، القليل جدًّا. أيّ بخيل هذا؟ لا يمكن إلاّ أن يكون مقران. ألقيت بها. لا أتصوّر في فمي سيجارة استقرّت بين أصابع ذلك العجوز القميء وداعبها بشفتيه القبيحتين حتى الفناء. كم الأمر مقزّز.

لا أعتقد أنه مقران، فهو على الأرجح يأكل أعقاب السجائر بعد أن ينتهي من تدخينها. رأيته غير ما مرّة يجمع البونتات في الشارع ويدسّها في جيب معطفه الأصفر السميك الذي لم أره يرتدي غيره. المسكين.

نحن نتشابه كثيرًا. كلانا يسكن في الطابق السادس ويجمع أعقاب السجائر من الشوارع، حتى إنك أردت أن تجعلني زميلك في العمل، اقترحت عليّ أن تبحث لي عن عمل معك في شركة التنظيف التي تعمل بها. لو تلقّيت هذا العرض من شخص آخر لاعتبرته إهانة، لكنني أقدّر موقفك. على الأقل، فكّرت في مساعدتي. إنك أفضل بكثير من موحوش النقش.

موحوش، ليتك كنت بمثل شهامة زوج خالتك.

اللعنة، لماذا أتذكّرك أيها الحقير؟ لو كان فيك خير لانتشلت مقران من هذا الشقاء، بالتأكيد ما كان حينها ليبقى بمعطفه الأصفر النتن، ويضطرّ لجمع أوساخ الناس من هذه الشوارع، والتقاط بقايا سجائرهم.

عمّي مقران، ها قد تعلّمت منك شيئًا، الآن لم نعد جيران فحسب، بل زملاء أيضًا.

دعيني أنتقم من الحرمان. سأحتسي فنجان القهوة بسيجارة، حتى وإن كانت بقية لمدخّن مجهول، غني، فقير، موظّف أو بطال، شيخ أو شاب أو طفل يدخّن خفية عن والديه.. لا تهمّني تلك التفاصيل، كل ما يهمّني هو أن أدردش وأدخّن.

أين يمكن أن تكوني في هذه اللحظة أيتها الكسولة الرائعة؟ من عادتك أن تقبعي قبالة الكمبيوتر ساعات طويلة وأنت تلتهمين سندويشات الهمبرغر الضخمة وتثرثرين على المسنجر. أستبعد أن تكوني قد غيّرت عادتك وأصبحت

تمارسين الرياضة مثلا. يا إلهي، لا أستطيع أن أتخيّلك تقومين بتمارين رياضية أو تحرين وتقفزين. كم الأمر مثير للسخرية.

تعالي، لا أحد تنطبق عليه مقولة المرأة المناسبة في المكان المناسب تمامًا مثلك. مكانك المناسب هو تلك الأريكة، قبالة ذلك الكمبيوتر. إنّك الشخص الوحيد على هذه المجرّة المستعد دائمًا ليسمعني، أريد أن أحدّثك عن خيباتي العريضة المتتالية. أن أمارس معك النميمة في س٤ وس٣ الذين لا تعرفينهما، لكن عليك أن تعرفي أنّهما لم يتّصلا بي منذ خمسة أيام كاملة. أن أخبرك بمدى يأسي، وأنّني أدخّن بإيمان عميق بونتات تركها مدخّنون مجهولون، وأنّني لا أملك ثمن سيجارة من النوع الرديء.

فاصل ثان

جثّة امرأة ممدّدة أمام مرمدة مبقّعة بالدم، وقطّة بيضاء سمينة تموء داخل تلافيف دماغك.

تلك القطّة ستصيبك بالجنون.

هذا أنت.. الشخص ذاته. الكهل غريب الأطوار، الذي يعاني حالة متأزّمة من انفصام الشخصيّة، الذي لا ينام كبقيّة البشر. إن لم تكن هو، فأنت تشبهه.

أتصوّرك بأسنان بنيّة متهاكلة. ففي سنوات عمرك الشقي، استهلكت من السجائر ما يكفي لشراء سيارة فاخرة.. وفيلاّ فخمة.

تتضوّر جوعًا، لكنك لا تشتهي غير سيجارة تدخّنها حتى تحترق شفتاك.

يُفترض أن تكون في هذه الساعة مستلقيًا في فراشك، متوسّلاً النعاس أن يحاول فقط الاقتراب منك، لتختطفه وترحل إلى نوم عميق. لكنّك تتسكّع في الشارع س كمجنون. أعرف أنّك تبدو كذلك، فهذا الشارع الذي تغزوه أمواج بشرية طيلة النهار يتصحّر ليلاً، ويستحيل خواء ليس فيه إلاّ قليل من المارّة، بعضهم أو جلّهم مشرّدون أو

مجانين. في هذه الليلة استثناءً، ثمّة أنت وكلب عند المنعطف يقلّب صندوق قمامة، أمام مطعم للوجبات السريعة.

مررت من هنا في النهار. كان المكان مكتظًّا بالمارّة إلى درجة يصعب فيها إيجاد موطئ قدم. وكان المطعم يتزيّن بسلسلة بشرية تطوّق مدخله.. رجال ونساء، مسنّون ويافعون وفتيات وأطفال، اجتمعوا عند مدخله كما لو أنّهم في احتجاج.

هو احتجاج حقيقيّ، رغم أنهم لا يطالبون بحقّهم في الكرامة.

وبالعدالة الاجتماعية.

ولا ينادون بالديمقراطية،

وبتعددية إعلامية وسياسية حقيقية.

كل ما يطلبونه هو حقّهم في قطعة بيتزا.

ما أعظم الثورة.

انخرطتَ في الثورة. وكلّما اقترب الطابور، تناهت إليك رائحة الأكل وتراءى لك أشخاص يلتهمونه بلا هوادة. وحين صرت وجهًا لوجه أمام النادل السمين، تظاهرت بأنك تقلّب جيوبك، كمن نسي نقوده. محض خطّة يائسة لكسب التعاطف والظفر بشيء يؤكل. ما كان يضيره لو قال لك: «تفضّل، كل ما تريد، وادفع ثمنه في المرّة القادمة»؟

لم يكن بتلك الشهامة.

– آه يا كلب.

ما الذي وجدته هناك؟

مرّ أكثر من ربع ساعة منذ أدخلت رأسك في البرميل. لولا بقية من حياء، لجئت أزاحمك في وجبتك تلك.

لا حيا لا شكوبّي!

أيّ كلب يعوّضني عما سأتركه هناك؟

لا أحد بالتأكيد. فأنا جائع منذ خمسة أيام دون أن يعلم أو يشعر بي أحد.

الأربعاء

لم أذق شيئًا..

الخميس

أكلت قطعة خبز يتيمة..

أمس

أكلت سندويتش كرنطيطة حارة، وشربت ثلاث زجاجات جعّة مع س.

في أيام الجوع، يختفي الأصدقاء. وماذا يهمّني؟

ليس لي أصدقاء أصلاً.

اليوم، لم أذق شيئًا. في أيّام الجوع، تصبح الكرنطيطة بمثابة كنز، لذيذة كأيّ طبق شهيّ في أي مطعم فاخر.

لكن معجزة حدثت أمس!

سمعت طرقًا على الباب. حدست أن س جلب زجاجات بيرة معه وجاء لنسكر معًا إلى الصباح. ولما كان الطرق خفيفًا، على غير عادة ذلك المعتوه، الذي تعوّد على الصراخ وركل الباب بقوّة، فقد عدلت عن تخميني.

باستثناء س، لا أحد يطرق بابي بهذه الخشونة.

باستثناء س، لا أحد يطرق بابي أصلاً.

باستثناء س، لا أحد يطرق بابي أصلاً، غير أصحاب الفواتير التي لم أسدّدها منذ أشهر، ما جعلهم يقطعون الماء والكهرباء والهاتف. من حسن الحظّ أنهم لم يضعوا فاتورة للهواء، وإلا لقطعوه عنّي أيضًا.

خذوا كل شيء!

اتركوا لي الهواء فقط، بمقدار ما أتنفّس. لا أحتاج إلى هاتف، فليس لي من أكلّمه، وليس ثمّة من يهاتفني ليسأل عن حالي. ابنتي لا تكلّف نفسها وحدة من هاتفها لتعرف، على سبيل الفضول مثلا، إن كنت ما أزال حيًّا أم أنّني شبعت موتًا. ليست مستعجلة. سأموت وحيدًا في جحري دون أن يعرف أحد، وحينها لا أريدكم أن تمشوا في جنازتي، أو أن تذرفوا عليّ دمعة واحدة يا أولاد الكلب.

لستُ بحاجة إلى الكهرباء. أحب تلك العتمة، وأكتفي كل ليلة بضوء شمعة واحدة أنام عادة قبل أن تلتهم نفسها. أمّا الماء، فغيابه هو ما يجعلني بهذا الشكل، ويجعل رائحتي

شبيهة برائحة الكلب، هناك في المنعطف.

تُرى، أيّة وجبة شهيّة يستمتع بها ابن المحظوظة؟

ثمّة طنجرة مرق تفوح منه رائحة لذيذة وصحن كسكسي يغطّيه فخذ دجاج سمين. لم أكن إلاّ لأسبح في الرائحة التي لم تدغدغ أنفي منذ ردح طويل، وأغرق في المشهد الذي لم أره في بيتي منذ سنوات، حتّى إنّني كدت ألاّ أنتبه إلى أن مبروكة هي من يحمل الصحن والطنجرة. تأمّلنا بعضنا للحظات دون أن ننبس ببنت شفة. ولا أفهم كيف مددت يديَّ كأي متسوّل تعوزه الكرامة لأتلقّف الطعام منها، قبل أن تنصرف وهي تقول مبتسمة: «بصحتك سي مقران».

سي مقران! هل جُنّت مبروكة؟

سقطت عنّي تلك المفردة التي تسبق اسمي منذ قرن، حتى إن آخر ما سمعته منها قبل هذه المسافة الزمنية الهائلة كانت كلمة كلب.

لم تكن رائحتي حينها كرائحة كلب مشرّد. لم أكن بهذه اللحية الكثّة والملابس البالية، لكنني أُخرجت من الشقة مقيّدًا، واقتادني شرطيّان عبر سلالم العمارة التي اكتظّت بالجيران الذين راحوا يرقبون المشهد بفضول. سمعت همهمات ولعنات في كل طابق، كان بعضهم يشير إليَّ بأصابعه. في الطابق الأوّل، وقفت مبروكة عند باب شقّتها مع ابنتي سمّونة وابنها البليد.. لم أرَ أحدًا يبكي غيرها وابنتي وسط كلّ هؤلاء. حين ابتعدنا عنها قليلاً، سمعتها تقول: «روح إلى الجحيم يا كلب». التفتُّ إليها وقد ندّت على ملامحي

ابتسامة رجل مهزوم. طأطأت رأسي وواصلت سيري. لم ألمها البتّة، إنما وافقتها في قرارة نفسي، بل تعاطفت معها.

لم أقتل أختها التي شاركتني سريري وسقف ذلك الجحر البائس خمسة عشر عامًا عمدًا. صحيحٌ أنّني اعتدت على ضربها، بسبب أو دون سبب، خاصّة إذا كان طعامها ينقصه بعض الملح، لكن ما كنت لأقتلها أبدًا.

الحقيقة أن الملح كان السبب الرئيس الذي أحال حياتنا إلى جحيم، كنتُ أحبّ الطعام مالحًا.. مالحًا جدًّا، وكانت تتفنّن في طبخه مسّوسا. حتى أنّني صرت أجزم أنها تفعل ذلك لإغاظتي.

قالت لي مرّة وأنا أمسكها من شعرها وأنهال عليها بالصفع والركل: «يمكنك أن تضيف له الملح». لكن ذلك غير ممكن عندما يتعلّق الأمر بالكسكسي، أحبه مطهوًّا بالملح.. هل تعتقدون أن ذوق الطعام المطهوّ بالملح هو نفسه حين نضيفه إليه بعد الطهي؟

أبدًا!

لم أتعمّد قتلها!

انسلّت من بين أصابعي كأفعى، وهربت إلى بيت أختها الكبرى التي تسكن في الطابق الأول، وبعد دقيقتين جاءتا معًا، وقالت مبروكة بنبرة حادّة: «والله ما حقّ عليك يا سي مقران تضرب مرتك على جال الملح.. كي تلقاه مسّوس زيدلو. ما تخسر والو».

أنتما تفكّران بالطريقة ذاتها إذن! وهذا الطعام لا أحتاجه. رميتُه من النافذة. وحين تفعلينها مجدّدًا، ستكونين أنت من أرميه منها.

لم آكل، بالمعنى الحقيقي للأكل، منذ خمسة أيام، لكن طنجرة المرق التي تفوح منه رائحة ذكيّة، وصحن الكسكسي الذي يغطّيه فخذ دجاج سمين لا تحرّك فيَّ أيّة شهيّة.

أكره الجمعة!

أكره هذا اليوم التعيس الذي تتوقّف فيه الحياة.. حياتي توقّفت فيه أربعة وعشرين عامًا. أكره الكسكسي ورائحته الذين يذكّرانّني بذلك اليوم الذي توقّفت فيه حياتي.. وحياتها.

أنت تعتقدين أن الصدقة تجب يوم الجمعة فقط!

ماذا عن كل الأيام التي قضيتها وسأقضيها جائعًا يا مباركة؟

لم أرمِ زوجتي من النافذة، بل قتلتها بمطفأة سجائر زجاجية سميكة قذفتها بها على رأسها.. وضعت أمامي صحن الكسكسي وطنجرة المرق، كالعادة في مثل ذلك اليوم من كل أسبوع، ووقفت عند الباب كأنها تنتظر ردّة فعلي بعد أوّل ملعقة تصل إلى فمي.. كان الطعام مالحًا، لدرجة لا تُطاق.

ـ تحوّسي تقتليني يا ربّك!

ببرودة قالت: «أشبع ملح».

مددت يدي إلى مطفأة السجائر التي كانت بجانبي وقذفتها بها، أصبتها في رأسها. هوت على الأرض وهي تنزف، ولم تصدر منها أيّة حركة.

تسمّرتُ في مكاني، ورحت ألتهم السجائر واحدة تلو الأخرى وأنفضها على الأرض.

نفاية بشرية ممدّدة على الرصيف، تحلم بعقِب سيجارة، وتراقب كلبًا بمنتهى الحسد.

النهار للبشر والليل للحيوانات. لولا الناموس، لكنت الآن في فراشي أشخر كثور.

مشهد الجثّة الممدّدة أمام مطفأة السجائر الملطّخة ببقعة دم يسكنني، لم يفارقني طيلة السنوات التي قضيتها في السجن. وتلك القطّة التي دهستها شاحنة، تموء داخل رأسي المتعب.

قطّة بيضاء سمينة ونظيفة عبرت الطريق.. شاحنة ضخمة أقبلت نحوها بسرعة مجنونة.. ركضت القطّة بأقصى سرعتها طالبة الحياة، لكن الشاحنة كانت أسرع.. استقرّت بين عجلاتها العملاقة.. ندَّ منها مواء طويل يشبه البكاء، وتناثر جسدها إلى أشلاء صغيرة معجونة بالدم. في تلك الجمعة التعيسة، شاهدت جثّتين: زوجتي الممدّدة أمام مطفأة السجائر المبقّعة بالدم، والقطّة المعجونة بين عجلات شاحنة عملاقة.

جثّتان في يوم واحد!

سائق الشاحنة أكمل طريقه بشكل اعتيادي، وكأنه لم يقتل قطّة لتوّه، كأنه لم يرتكب جريمة، أمّا أنا فنهرني الشرطيان لأصعد إلى السيّارة.

إلى تلك اللحظة، لم أكن قد ذرفت دمعة واحدة، لكنني أجهشت بالبكاء حين رأيت ذلك المشهد المريع، وظللت أبكي كلّما تذكّرت تلك المسكينة. أقسم أنها كانت سعيدة وهي تعبر الطريق إلى موعد ما. خطرت ببالي سمّونة التي أصبحت يتيمة منذ تلك الجمعة. دُفن أبوها في اليوم نفس، ودُفنت أمّها في اليوم التالي.

أخذتها خالتها التي لم تزرني طيلة القرن الذي قضيته في السجن، ولم تحضرها إليَّ يومًا لأراها. كانت صغيرة لدرجة أنها نست ملامحي. من المؤكّد أن العاهرة ربّتها على أن تكرهني، وإلا لِمَ لا تذهب لترى هذا الكلب؟

لماذا لا تذهب لترى هذا الكلب؟

لعلّه كلب مسعور!

مازال يدسُّ رأسه داخل برميل القمامة. لا يبدو مسعورًا. ابتعِد! دعني أرَ ما الذي وجدته هناك أيها اللعين؟ دجاجة مشوية أم قطع نقانق متبّلة أم لحم؟ لا يمكن إلا أن يكون لحمًا. لا تضطرني إلى قذفك بحجارة. أكلتَ ما فيه الكفاية. فكِّر في هذا العجوز المثير للشفقة. هيا ابتعد!

لا يوجد لحم. كلّ ما في الأمر بقايا قطع بيتزا. أتصوّر مدى جوع ذلك المسكين الذي اضطر إلى أكل كل تلك الكمية من بقايا عجائن تركها زبائن متخمون. آه يا مبروكة،

ماذا كنت ستقولينه لو رأيتني الآن؟ تلك الكلمة التي كانت آخر ما سمعته منك قبل أربع وعشرين عامًا لا تبدو كافية. لا شك أنك ستقولين: «حاشا الكلب. الكلب أفضل منك».

نعم، إنه أفضل منّي على أيّة حال، فهو أكل بقايا بيتزا خلفها زبائن مجهولون، وأنا سآكل بقايا خلّفها كلب مشرّد من بقايا خلّفها زبائن مجهولون.

تريدين الحقيقة؟ إنها لذيذة ومتبّلة ومطليّة بالهريسة أيضا. بالنسبة لعجوز بائس لم يأكل منذ خمسة أيّام، فإن هذه تعادل وجبة تُقدّم في فندق من سبع نجوم.

سمّونة.. أبوك يأكل طعامًا تركته الكلاب. أبوك أقلّ شأنًا من الكلب.

لا أريد شيئًا منك. لتذهبي إلى الجحيم، ولتأخذي مبروكة معك. مبروكة من قال لك أنّني بحاجة إلى طعامك؟ لقد قذفته إلى الشارع، وسأرمي بك من النافذة إن طرقتِ بابي مرّة أخرى.

قتلت أختك قبل أربعة وعشرين عامًا، فما الذي يمنعني من قتلك أنت أيضا أيتها اللصّة؟

قضيتُ كل تلك السنين في السجن، وأنا مستعدّ لقضاء بقيّة عمري فيه. بالمناسبة، إنه أرحم بكثير من هذا السجن الكبير.

لا شيء سيشفي غليلي منك أيّتها العاهرة غير رؤية جثّتك مهشّمة بعد سقوط مريع من الطابق السادس.

سيكون السقوط ممتعًا والارتطام لذيذًا.. سأستمتع بكلّ ثانية من الثواني القليلة التي تقضينها في طريقك إلى الجحيم. تذكّري في كلّ واحدة منها كلّ ثانية شقاء سبّبتها لي.

تذكّري أنك اختطفت مني سمّونة التي طالما أردتِ أن تكون زوجة لابنك المخبول. ما كنت لأقبل أبدًا.. الحقيقة أنّني كنت أكرهه مذ كان طفلاً، لم أكن أطيق حتى مجرّد رؤيته. كان جميع الأولاد نظيفين ومرتّبين إلا هو، متّسخ ومخاطه يسيل من أنفه على الدوام. لم يكن يفضّل اللعب إلاّ في القمامة والأماكن القذرة، وذلك ما كان يجعله يبدو مثل خنزير صغير خرج لتوّه من مزبلة.

وجدته مرّة يتغوّط في سلالم العمارة. يتغوّط ويغنّي بأعلى صوته. ركلته بقوة على مؤخّرته الصغيرة، فتدحرج على السلالم، حتى إن فضلاته التصقت بحذائي.

سألتني زوجتي: «ما هذا يا رجل؟».

ـ غائط ابن أختك الذي يفعلها في سلالم العمارة.

أومأت برأسها مستفسرة، فهممت بأن أشرح لها ما حدث، لكن مبروكة اقتحمت البيت دون مقدّمة، وهي تجرّ موحوش من يدها كدمية ممزّقة، وراحت تصرخ بكلمات بذيئة لم يسبق أن سمعتها من فم امرأة.

إن حذفت عباراتها النابية، فسيكون ما قالته لي على النحو التالي: «لا يحق لك أن تضربه على الإطلاق. أبوه هو الوحيد المخوّل بتأديبه إن أخطأ».

ـ الله يرحمه. لو كان حيًّا لما عارض. على كلّ، سمحت لنفسي بضربه لأنّني اعتقدت أني بمثابة أبيه.

سحبته بعنف إلى الخارج، وهي تقول: «ما عندو ما قوّدك، أنا يمّاه وأنا باباه».

ـ شفتِ أختك السوقية؟ لولا بقيّة من حياء لأشبعتها ركلاً على مؤخرتها المترهّلة.

ـ لا تضرب ابنها. تعرف أنه وحيدها المدلّل.

ـ يا سلام على الدلال. ولكن الحق عليَّ، فليفعلها في بهو بيتهم إن أراد. الحقيقة أنّني أكره هذا الطفل.

ـ هههه.. لو سمعت مبروكة إذن، ماذا كنت ستقول؟

ـ أسمع ماذا؟

ـ دائما تقول: «سمّونة لموحوش وموحوش لسمّونة.. عينها على البنت، تريد أن تزوّجها له».

ـ لعلها جُنّت! لا يمكن أن أزوّج سمّونة لذلك الحلّوف.. أبدًا.

ما يجب أن تعرفوه

موحوش تزوّج سمّونة.

ما أريد أن أعرفه

كيف أصبح ذلك الخرّاي طبيبا؟

تتمّة الفصل السادس

فاجأني موحوش، بالمفهوم الإيجابي للكلمة. جاد عليَّ بعلبة سجائر كاملة، وفوقها كمشة أوراق من حزمته السمينة. سيتأجّل المشروع قليلاً، ريثما أكمل السجائر العشرين، أتحدّث عن القفز.

خبر سعيد

أصبحتُ ثريًّا نوعًا ما.

خبر سيء

ما أتعس أن يتحوّل المرء إلى ثريّ في نهاية الرواية.

خبر سعيد آخر

بإمكاني أن أحيا ما تبقّى لي من سطور ببذخ. لن أعود مشيًا.

لن أعود مشيًا، بل سأقلّ أول سيارة تمر عليّ.

يمرّ سائق التاكسي العجوز.. يتوقّف أمامي ويأخذني إلى العمارة. أُغدق عليه بكرم خرافي.

عند المنعطف، أرى مبروكة وابنتها سمّونة جالستين على الأرض، تتسوّلان صدقات المارة كعادتهما، البائستان. أرمي

إلى صحنهما الفارغ ما تبقى من أوراق موحوش، ثم أهمّ بالمغادرة.

تتشبّث سمّونة بي: «خذنا معك».

ـ لكنني سأقفز من الطابق السادس.

تقولان بصوت واحد كما في مسرحية: «سنقفز معك».

المعتوهتان، تظنّان الأمر مزحة.

أنفلت منهما وأمضي إلى وجهتي، وحين أصل، أجد جمعًا غفيرًا من الفضوليين مجتمعين، بينهم سمّونة ومبروكة وموحوش ومقران.

أجلس على الحافّة وأنا ألتهم سجائري، واحدة تلو الأخرى، في استرخاء تامّ. أرقبهم ويرقبونني. يصلني ضجيجهم. اعتدت أن أرى شخصًا يهدّد بالقفز، لكنني لم أر من قبل حشدًا يفعل ذلك. إنهم يريدون إنهاء هذه المهزلة بمهرجان من القفز. لكن لماذا يريدون فعل ذلك؟

مازلت أرقبهم، ومازالوا يرقبونني.

الاحتمال الأول

أنا فوق، وجوقة المجانين تحت.

الاحتمال الثاني

أنا تحت، أدخّن وأراقب ببرودة مجموعة مجانين يهدّدون بالقفز من الطابق السادس.

ما يحزّ في قلبي هو أن كل شيء سينتهي هكذا، الآن وهنا، دون أن تعرفوا ما إذا كنت فوق وهم تحت، أم أنّني تحت وهم فوق.

عزاؤكم الوحيد في كل هذا الهراء أني لا أعرف أيضًا.

المدنية (الجزائر العاصمة)
مارس/ آذار 2013

للتواصل مع الكاتب

hadjiou@yahoo.fr